

# اليمين واليسار

رؤية أستمولوجية نقدية للمفهوم

- تأليف: محمد ملا عباسي
- سجاد صفار هرندي
- تعريب: حسن علي مطر

## هذه السلسلة



تتغيًا هذه السلسلة تحقيق الأهداف المعرفية التالية:  
**أولاً:** الوعي بالمفاهيم وأهميتها المركزية في تشكيل وتنمية المعارف والعلوم الإنسانية وإدراك مبانيها وغاياتها، وبالتالي التعامل معها كضرورة للتواصل مع عالم الأفكار، والتعرف على النظريات والمناهج التي تتشكل منها الأنظمة الفكرية المختلفة.

**ثانياً:** إزالة الغموض حول الكثير من المصطلحات والمفاهيم التي غالباً ما تستعمل في غير موضعها أو يجري تفسيرها على خلاف المراد منها. لا سيما وأن كثيراً من الإشكاليات المعرفية ناتجة من اضطراب الفهم في تحديد المفاهيم والوقوف على مقاصدها الحقيقية.

**ثالثاً:** بيان حقيقة ما يؤديه توظيف المفاهيم في ميادين الاحتدام الحضاري بين الشرق والغرب، وما يترتب على هذا التوظيف من آثار سلبية بفعل العولمة الثقافية والقيمية التي تتعرض لها المجتمعات العربية والإسلامية وخصوصاً في الحقبة المعاصرة.

**رابعاً:** رقد المعاهد الجامعية ومراكز الأبحاث والمنتديات الفكرية بعمل موسوعي جديد يحيط بنشأة المفهوم ومعناه ودلالاته الإصطلاحية، ومجال استخداماته العلمية، فضلاً عن صلته وارتباطه بالعلوم والمعارف الأخرى.

# اليمن واليسار

## رؤية استمولوجية نقدية للمفهوم

تأليف:

محمد ملا عباسي / وسجاد صفار هرندي

تعريب:

حسن علي مطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## هوية الكتاب

- الكتاب: اليمين واليسار  
رؤية أبستمولوجية نقدية للمفهوم
- تأليف: محمد ملا عباسي - سجاد صفار هراندي
- تعريب: حسن علي مطر
- الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية  
العتبة العباسية المقدسة
- الطبعة: الأولى 2017م - 1439هـ



## الفهرس

9.....مقدمة المركز

11.....المقدمة

### ◇ الفصل الأول:

14.....البداية

14.....توماسو كامبانيا (1568 - 1639)

18.....اليسار واليمين: نحو الفصل والتفكيك

### ◇ الفصل الثاني:

22.....الثورة الكبرى

23.....السلطة المهترئة

27.....بداية الثورة

30.....مجلس المؤسسين

31.....العالم على أعتاب الثورة الفرنسية

## الفهرس

33..... الثورة بين الأخذ والرد

### ◆ الفصل الثالث:

38..... الليبرالية

38..... الليبرالية التقليدية

41..... الثورة الصناعية

49..... الملكية الخاصة

### ◆ الفصل الرابع:

52..... بركان اليسار

54..... الفوضوية

58..... ماركس

70..... حكومة باريس

### ◆ الفصل الخامس

78..... اتّساع رقعة الصراع

81..... روسيا وارثة اليسار

84..... الماركسية ما بعد كارل ماركس



## الفهرس

- 90.....الماركسية الروسية
- 95.....الولايات المتحدة الأمريكية: رائدة اليمين
- 98.....جان مينارد كينز

### الفصل السادس:

- 102.....اليمين غير الليبرالي في القرن العشرين
- 102.....الحروب العالمية
- 104.....اليمين غير الليبرالي: التيار المحافظ والفاشية
- 105.....1 - التيار المحافظ
- 112.....2 - الفاشية

### الفصل السابع

- 116.....انسلاخ اليسار من جلده
- 125.....عودة الرأسمالية إلى رشدها؟
- 127.....مدرسة فرانكفورت
- 130.....الانتفاضة الطلابية لعام 1968 م

- 134..... نهاية الأيديولوجيا؟
- 136..... الجذب والاندماج، نهاية اليسار بعد عام 1968م
- 138..... تجديد قوى اليمين: الليبرالية الحديثة
- 145..... انهيار الشيوعية
- 149..... الملحقات
- 149..... الملحق رقم (1)
- 149..... الديمقراطية ومناقشة اليسار واليمين
- 155..... الملحق رقم (2)

## مقدمة المركز

تدخل هذه السلسلة التي يصدرها المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية في سياق منظومة معرفية يعكف المركز على تظهيرها، وتهدف الى درس وتأصيل ونقد مفاهيم شكلت ولما تزل مرتكزات أساسية في فضاء التفكير المعاصر.

وسعيًا الى هذا الهدف وضعت الهيئة المشرفة خارطة برامجية شاملة للعناية بالمصطلحات والمفاهيم الأكثر حضوراً وتداولاً وتأثيراً في العلوم الإنسانية، ولا سيما في حقول الفلسفة، وعلم الاجتماع، والفكر السياسي، وفلسفة الدين والاقتصاد وتاريخ الحضارات.

أما الغاية من هذا المشروع المعرفي فيمكن إجمالها على النحو التالي: أولاً: الوعي بالمفاهيم وأهميتها المركزية في تشكيل وتنمية المعارف والعلوم الإنسانية وإدراك مبانيها وغاياتها، وبالتالي التعامل معها كضرورة للتواصل مع عالم الأفكار، والتعرف على النظريات والمناهج التي تتشكل منها الأنظمة الفكرية المختلفة.

ثانياً: إزالة الغموض حول الكثير من المصطلحات والمفاهيم التي غالباً ما تستعمل في غير موضعها أو يجري تفسيرها على خلاف المراد منها. لا سيما وأن كثيراً من الإشكاليات المعرفية ناتجة من اضطراب الفهم في تحديد المفاهيم والوقوف على مقاصدها الحقيقية.

ثالثاً: بيان حقيقة ما يؤديه توظيف المفاهيم في ميادين الاحتدام الحضاري بين الشرق والغرب، وما يترتب على هذا التوظيف من آثار سلبية بفعل العولمة الثقافية والقيمية التي تتعرض لها المجتمعات

العربية والإسلامية وخصوصاً في الحقبة المعاصرة.

رابعاً: رُفد المعاهد الجامعية ومراكز الأبحاث والمنتديات الفكرية بعمل موسوعي جديد يحيط بنشأة المفهوم ومعناه ودلالاته الإصطلاحية، ومجال استخداماته العلمية، فضلاً عن صلته وارتباطه بالعلوم والمعارف الأخرى. وانطلاقاً من البعد العلمي والمنهجي والتحكيمي لهذا المشروع فقد حرص لامركز على أن يشارك في إنجازة نخبة من كبار الأكاديميين والباحثين والمفكرين من العالمين العربي والإسلامي.

\* \* \*

في هذه الحلقة من "سلسلة مصطلحات معاصرة" يتناول الباحثان الإيرانيان سجاد صفار هرندي ومحمد ملاً عباسي مفهوم "اليمين واليسار" انطلاقاً من رؤية جديدة سعت إلى الإحاطة به من الجانبين النظري والتطبيقي.

لا شك بأن قراءة إجمالية لتاريخ هذا المصطلح سوف تبين لنا المساحة الكبرى لحضوره في عالم السياسة والفكر والاجتماع، غير أن الإضاءة عليه على النحو الذي عرضته هذه الدراسة يكتسب أهمية معرفية خاصة. فقد بين الكاتب استناداً إلى التجارب التاريخية في الغرب والعالم الإسلامي، ناهيك عن رؤيته النقدية لتلك التجارب.

والله ولي التوفيق

## المقدمة

تعتبر دراسة اليسار واليمين في تاريخ الفكر والعمل السياسي من السعة بحيث يبدو اختزالها في كتاب صغير يتعد عن اجترار البدييات، أمراً في غاية التعقيد. وهذه هي الغاية التي نرمي إليها في هذا الكتاب. حيث سعينا إلى بيان الخصائص العامة لتاريخ اليسار واليمين في حقل المعرفة والفكر والعمل السياسي بأسلوب مبسّط. ومن هنا يمكن اعتباره مصدراً أولياً لعامة الراغبين في التعرف على الأبحاث والأفكار السياسية. ولتسهيل قراءة النص على القارئ المحترم، استغنيانا عن الإحالات الجزئية، واكتفينا بذكر الإحالات الهامة - التي من شأنها أن تنفع القارئ في متابعة جذور البحث - في الهامش. يتعرض موضوع الكتاب لأفكار تيار اليسار واليمين، ويبدأ بالمرحلة التاريخية للثورة الإسلامية، ليمضي بعد ذلك قدماً على نحو تدريجي. وفي بعض الفصول تمّ التركيز على النقاش الفكري، بينما اشتملت الفصول الأخرى على الحجم الأكبر من التيارات التاريخية للنشاط السياسي. ولكن كان هناك - في المجموع - سعي إلى إقامة التوازن بين هذين الأمرين. ولا بد من التنويه إلى أن الإطار العام لهذا الكتاب عبارة عن التلفيق بين الأفكار الواردة في السلسلة الرائعة لـ "إريك هابزبازم" حول التاريخ في أربعة مجلّدات، والكتاب القيّم لـ "حسين بشيرية" بعنوان

(تاريخ انديشه هاي سياسي در قرن بيستم)<sup>[1]</sup>. بيد أن الفكرة الرئيسة لهذا الكتاب والنتيجة التي سينتهي إليها تختلف عن هذين الكتائين. وفيما يتعلق بالفكر السياسي، نواجه بعض المسائل الهامة التي لا يمكن إدراجها بيسر ضمن خانة اليسار أو اليمين، كما لم يسمح لنا حجم الكتاب بالدخول في التفاصيل. ومن بين أهم تلك المسائل هي مسألة الديمقراطية، فعمدنا إلى بيان نسبة هذه المسألة إلى هذين المفهومين في نهاية الكتاب.

---

[1] - تاريخ الآراء السياسية في القرن العشرين.

الفصل الأول

البداية

## الفصل الأول:

## البداية

### توماسو كامبانيلا (1568 - 1639)

ولد جيوفاني كامبانيلا<sup>[1]</sup> عام 1568 م في قرية استيلوا من مقاطعة كلورية (أو كالابريا) الواقعة إلى الجنوب من إيطاليا، لأسرة إيطالية أمية وفقيرة، حيث كان والده يعمل رقاعاً. بيد أن مخايل النبوغ التي ظهرت عليه منذ الصغر، عملت على تغيير مجرى حياته، وعملت على تحديد مصيره. حيث انتسب إلى الرهبنة الدومينيكانية في سن الرابعة عشر، واختار لنفسه اسم توماسو نسبة إلى "توماس أكويناس"<sup>[2]</sup> أو "توما الأكويني"، فأصبح معروفاً باسم "توماسو كامبانيلا"<sup>[3]</sup>.

كان توماسو الشاب يقرأ الكتب بولع ونهم، وسرعان ما أصبح ملماً في اللاهوت، وعلم الهيئة (النجوم)، والطب، والمنطق، واللغة، والسياسة، وسائر العلوم التي كانت سائدة في عصره. وفي سن مبكرة جداً خاض في معترك الفيلسوف العريق (أعني بذلك أرسطو طاليس). حيث كان النظام الفلسفي لأرسطو طاليس هو النظام الوحيد الذي آمنت به الكنيسة، وأضفت عليه الشرعية؛ فكان التفكير الأرسطي وحده هو النظام الفكري المشروع في ذلك العصر. بيد أن توماسينو كامبانيلا

[1] - Giovane Campanella.

[2] - Tommas Aquinas.

[3] - Tommaso Campanella.



تمرّد على حصر التفكير ومشروعيته بهذا النظام، وأبدى ميلاً إلى الأفكار التجريبية لفيلسوف آخر اسمه "برناردينو تلسيو"<sup>[1]</sup>. وقد ألف أول كتاب له في سن الرابعة والعشرين، في الدفاع عن هذا الفيلسوف، وقال فيه: "إن كل شيء في هذا الوجود يرتبط بالحس والتجربة". وقد كلفه اعتراضه على أرسطو طاليس - في نهاية المطاف - غالياً؛ إذ واجه معارضة من قبل الكنيسة، ثم زُجَّ به في السجن [الثلاثة عقود تقريباً] بسبب أفكاره التي لم ترق للكنيسة.

وبعد إطلاق سراحه من السجن، عاد إلى مسقط رأسه كالابريا، وسرعان ما أدخلته شخصيته المغامرة في مؤامرة ضدّ المحتلين لبلاد من الإسبان. بيد أن اثنين من زملائه وشيا به؛ ليتمّ اللقاء القبض عليه ثانية، وحكم عليه بالسجن المؤبّد هذه المرة. حيث أمضى سنوات طويلة في أصعب الظروف التي تعرّض فيها لأبشع أنواع التعذيب والوحشية، حتى وصف حياته أثناء فترة السجن قائلاً: "اليوم أكملت السنة الثانية عشرة من مدّة السجن، وقد قضيت طوال الفترة المنصرمة في عذاب مستمر، وأشعر بالألم في جميع أعضاء جسدي، فقد تمّ وسمي بالنار حتى الآن سبع مرّات، ومضى عليّ سنوات لم أر فيها ضوء الشمس. أشعر بتفتت عضلاتي، وتحطم عظامي، وتمزّق لحمي"<sup>[2]</sup>. الأمر الذي اضطرّه أخيراً إلى الادلاء باعترافاته في السجن، وأعلن التخلي عن عقائده كي ينجو من الحرق بالنار، وبعد تعذيب طويل تمّ إطلاق سراحه، وهو يحمل جسماً نحيلاً منهكاً تنخره الأمراض.

لقد أمضى كامبيلا أغلب سنواته السبعة والعشرين سنة من مجموع

[1] - Bernardino Telesio.

[2] - انظر: رينيه سدي يور، سوسيباليسم ها، ص 174، ترجمه إلى الفارسية: هوشك مهدي، نشر نو، طهران، 1366 هـ ش.

عمره البالغ سبعين سنة في ظروف قاسية للغاية توزعت بين سجني "نابل" و"روما". ولكنه على الرغم من ذلك كتب في هذه الفترة العصبية بالذات أكثر أعماله تأثيراً وشهرة، والأهم من بين تلك الأعمال على الإطلاق كتاب "مدينة الشمس".

قام كامبانيا لا بتأليف كتاب "مدينة الشمس" سنة 1602 للميلاد، في واحد من سجون نابل باللغة اللاتينية، ليُطبع بعد ذلك بواحد وعشرين سنة في فرانكفورت ضمن مجموعة أخرى من مؤلفاته الفلسفية للمرة الأولى، ثم ترجم إلى اللغة الإيطالية عام 1643 للميلاد. وقد حاز هذا الكتاب مكانة هامة ضمن أدبيات اليوطوبيا في العالم. إن المدينة الفاضلة التي عمل كامبانيا لا على شرح أبعادها في هذا الكتاب، مدينة تتألف من سبع دوائر متحدة المركز، لا وجود فيها للملكية الخاصة. وفي الحقيقة يمكن القول إن مدينة الشمس أشبه ما تكون بالصومعة الكبيرة؛ فهي مثل الصوامع التي تكون فيها جميع الأموال - ومن بينها: البيوت وأماكن النوم، والمهاجع، وسائر أنواع الإثاث الأخرى - مشاعة بين الجميع. بيد أن الدولة تعمل على تغيير حياة هذا الإثاث بعد مرور كل ستة أشهر، فتعمل على استبدال الإثاث بين الأفراد، كي لا يتكرس عندهم مفهوم النزعة الاستملاكية بسبب طول مدة الاستفادة من الشيء الواحد. إن الدولة في "مدينة الشمس" تشرف إشرافاً دقيقاً على كل شيء، وتضع برنامجاً تفصيلياً للحصول على اعتراف المواطنين بذنوبهم، والاطلاع على آرائهم. ولكن على الرغم من ذلك - حيث يكون أعضاء الدولة بأجمعهم من الصلحاء والأخيار - لا يحتمل في هذه المدينة حصول أدنى شائبة من الأثرة والاستبداد.

إن جميع الأمور في مدينة الشمس حسنة وتجري على خير ما يُرام!

فلا وجود للسرقة والجريمة والفساد الأخلاقي والعلاقات المشبوهة وغير المشروعة. يعمل سكان المدينة أربع ساعات في اليوم بحبّ ورغبة، ليقضوا بعدها اليوم بتناول الأطعمة بشكل جماعي. إن سكان هذه المدينة - بسبب شغفهم وشدة حبّهم للعمل - لا يصابون بالأمراض، فلا يعرفون معنى الروماتيزم وأوجاع الظهر والقولون، وحيث يراعون الأمور الصحية لا يكون هناك للأمراض المعدية من أثر بينهم. والقضاة الوديعون فيها لا يدينون الناس إلا بسبب جُحّح طفيفة مثل: الكسل، وسوء الخلق، والغضب، والبذاءة. وغالباً ما تكون العقوبات على هذه الجنح بالغة القسوة؛ إذ قد تصل إلى حدّ النبذ والحرمان من الأكل مع سائر المواطنين. وعلى كل حال، يمكن الاسترسال في التوصيفات الطبوائية لكامبانيا إلى أبعد من ذلك. إلا أن الأهم من خياله الجامح هي الآمال المتجدّرة التي يقدّم كامبانيا حلوله للوصول إليها. وعلى الرغم من أن الطبوائيين من أمثال كامبانيا ليسوا بالكثير، بيد أن الآمال والأمني الجوهرية التي يطرحونها مركوزة في أذهان الكثرة الكاثرة من أفراد البشر. ومع غض النظر قليلاً، يجب القول: إن مسار الخيال الجامح والمشوب بالتنجيم والتبصير لكامبانيا، يمكن الوصول من خلاله إلى مصادر الكثير من "المسائل" الهامة التي أنفق العلماء والمفكرون الكثير من أعمارهم في دراستها والبحث عن حلولها، وهي مسائل من قبيل: "آفات الملكية الخاصة"، و"جور وطغيان الأثرياء والحكام"، هاجس "العدل" بين الناس. واليوم حيث يمضي ما يقرب من أربعمئة سنة على وفاة كامبانيا، فإن جميع أولئك الذين كانوا ولا يزالون يحملون هاجس حلّ هذه المسائل، يطلق عليهم مصطلح عام وأسطوري وغريب، وهو مصطلح "اليسار". وسوف نفصّل هذا المفهوم لاحقاً.

وبعد إطلاق سراحه من السجن سنة 1629 للميلاد، انتقل توماسينو كامبانياً إلى روما، لينشغل بعلم الفلك والنجوم لكونه أقل خطراً على حياته. بيد أنه لم تمض سوى خمس سنوات على حياته الوادعة هناك، حتى أوقعته مؤامرة حاكها ضدّ أحد أتباعه في بؤرة الخطر مجدداً. فهرب هذه المرّة من إيطاليا ولجأ إلى فرنسا. وهناك تمكن من دخول البلاط المهيب لجلالة الملك لويس الرابع عشرن والتقى بالكاردينال ريشيليو.

عاش كامبانياً سنوات عمره الأخيرة على راتب شهري منح له البلاط الفرنسي، ليعيش بقية عمره في صومعة "سانت أونوية" في باريس. وعلى الرغم من أن تلك الصومعة كانت في حينها مكاناً هادئاً ومناسباً للجسد الجريح والروح المرهقة لهذا الكاهن الهرم والمتمرد، إلا أنه لم يمض على وفاته سوى مئة وخمسين سنة، حتى تحوّلت تلك الصومعة لتغدوا سكناً لرجال زلزلوا أركان الأرض: إنهم اليعاقبة!<sup>[1]</sup>

## اليسار واليمين: نحو الفصل والتفكيك

ولكن من هم اليعاقبة؟ إن أول جواب يخطر على الذهن في هذا الشأن هو: "إنهم من أشهر الجماعات ذات الصلة بأحداث الثورة الفرنسية". بيد أننا إذا أردنا التعرّف على اليعاقبة الذين اتخذوا من صومعة "سانت أونويه" مقراً لتجمّعهم، وجب علينا أن ندرس الثورة الفرنسية أو "الثورة الكبرى"، وهي الثورة التي تمخّضت عن الكثير المفاهيم التي سادت عالمنا المعاصر، ومنها مفهومي اليسار واليمين.

[1] - اليعاقبة جمع اليعقوبي (Jacobin): جماعة سياسية متطرّفة عُرفت بنشاطها الإرهابي خلال الثورة الفرنسية. وقد اكتسبت هذه الجماعة اسمها بسبب إقامة أعضائها في صومعة (جاكوبوس). المعرّب.

يقول علماء المنطق: إن الإدراك حصيلة التمايز والتبويب. بمعنى أننا ما لم نقسّم المحيط الذي نروم التعرف عليه إلى طبقات ومجموعات متميزة، لن نتجاوز معرفتنا لذلك المحيط حدود بعض الكليات القليلة جداً. وفي الحقيقة فإن الإدراك إنما يبسط وجوده في الذهن إثر المقارنة بين الأشياء. بيد أن المسألة الهامة في البين هي أن لكل تبويب وتقسيم تأثيره الخاص في الوعي والإدراك.

لنذكر هنا مثلاً لتوضيح المسألة: لنفترض أنه طلب منك أن تكتب تقريراً عن وضع المسافرين على متن طائرة في رحلة بين طهران والقاهرة. وقد ترك لك الخيار في كتابة التقرير بالشكل الذي تراه مناسباً. إنك في مثل هذه الحالة سرعان ما ستدرك أنك قبل كل شيء مضطر - على كل حال - إلى تصنيف المسافرين إلى طبقات قبل تقديم أي توصيف لهم. وقد يقوم تقسيمك الأولي لهم على أساس الذكور والإناث. لتدخل بعد ذلك في المزيد من التفاصيل الخاصة بكل صنف من هذين الصنفين، وما هي الخصوصيات التي تميّز الرجال من النساء أو العكس. أو قد ترى من الأفضل تقسيم المسافرين على أساس المواطنة، ويكون جل المسافرين يحملون الجنسية الإيرانية والمصرية. وبعد ذلك يتفرّع بك هذا التصنيف إلى المزيد من التفاصيل بشأن المواطنين المصريين وخصائصهم، والمواطنين الإيرانيين وما يمتازون به من غيرهم.

وبعد الفراغ من كتابة التقرير، ستلقي نظرة عليه، وستدرك حينها أن تقسيمك الأولي قد ترك بتأثيره على بيان التفاصيل اللاحقة. فإن قسّمت المسافرين على أساس الذكور والإناث، ستكون جميع المعلومات المترتبة على هذا التقسيم ذات صلة وثيقة بمسألة "الجنس". وإن

كان تقسيمك قائماً على الهوية الوطنية، ستكون جميع المعلومات التفصيلية والجزئية المترتبة على هذا التقسيم، مرتبطة بشكل وثيق بالأمر المتعلقة بالوطنية والهوية. وهذا ما أشرنا إليه قبل ذكر هذا المثال. بمعنى أن نوع التقسيم الخاص يستتبع وعياً وإدراكاً خاصاً. فإن جميع معلوماتك السابقة بشأن الذكور والإناث، وتجاربك في الحياة، وحتى الأمور المتعلقة بالوالدين وما إلى ذلك، سوف تترك تأثيرها على كتابة تقريرك، وإذا أخذت الهوية الوطنية بنظر الاعتبار، فإن كل ما تعرفه بشأن الثقافة والتاريخ والمجتمع المصري والإيراني، سوف تترك بتأثيرها على توصيفك.

وعلى هذا الأساس فإن التقسيم والتبويب إنما يجدينا إذا كنا في مقام الحصول على بعض المعلومات بشأن محيط ما. ويمكن تصوّر هذا الوضع في حالتين، الحالة الأولى أن لا نكون مسبوقين بمعرفة المحيط ولا نعلم عنه شيئاً أبداً، والحالة الثانية أن تكون المعلومات التي نحملها عنه قديمة وبالية وغير مجدية، بحيث نكون معها بحاجة إلى تحديث معلومتنا عن ذلك المحيط، والوصول إلى معلومات جديدة. وبهذا المعنى يكون لكل تقسيم وتبويب بداية ونقطة انطلاق. أو بعبارة أخرى: إن لكل تقسيم تاريخاً.

بعد هذه المقدمة نعود إلى صُلب بحثنا، وهو تقسيم التيارات إلى: "تيار يساري" و"تيار يميني". فنقول: إن لهذا التقسيم تاريخاً زاخراً بالمنعطفات. وإذا أردنا أن نجعل بداية ونقطة انطلاق لهذا التقسيم، فسوف تعود تلك النقطة إلى العام 1789 للميلاد، أي: عام انتصار الثورة الفرنسية.

الفصل الثاني

الثورة الكبرى

## الفصل الثاني:

### الثورة الكبرى

قبل اندلاع الثورة الفرنسية كانت فرنسا تحكمها سلالة ملكية تحمل اسم "لويس"، وقد امتدت سلطة هذه السلالة لقرون من الزمن. وكانت الثورة الفرنسية قد تفجّرت في عهد الملك "لويس السادس عشر". كان نوع الحكم من الناحية السياسية في فرنسا ذا طبيعة استبدادية ومركزية شديدة. حيث كانت جميع مقاليد الأمور بيد شخص الملك، إلى الحدّ الذي قال معه المؤرّخ الفرنسي الكبير (ألبير ماليه) في كتابه (تاريخ القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية الكبرى وإمبراطورية نابليون)، نقلاً عن (دون فورجان) سنة 1783 للميلاد: "لم تكون في فرنسا طبقة رجال دين، ولا طبقة نبلاء، ولا طبقة ثالثة. كان هناك سلطان يأمر، ورعية تطيع فحسب"<sup>[1]</sup>. وإن النظرية السياسية التي كانت قائمة - منذ القرون الوسطى - على أساس "الحق الإلهي"، تمنح هذا الحق إلى الملك في فرنسا، وتطلق له العنان ليفعل ما يشاء.

من هنا سوف ندرك أن أهم مفردة في الأدبيات السياسية لذلك العصر هي مفردة "الملك". فإن جميع الرسائل التي تمّ تدوينها في الفلسفة السياسية حتى تلك المرحلة الزمنية، كانت تدور حول هذا السؤال المحوري القائل: "من هو الملك الجيد؟ وما هي صفاته؟"

[1] - انظر: ألبير ماليه وجول آيزاك، تاريخ قرن هيجدهم، انقلاب كبير فرانسه وامبراطوري نابليون، ترجمه إلى الفارسية: رشيد ياسمي، ص 341، طهران، 1345 هـ.



وأما سائر الطبقات الاجتماعية فلا يكون لها موضع من الإعراب إلا في حدود تنظيم علاقاتها مع الملك.

وعلى هذا الأساس كان بناء السلطة في تلك المرحلة في الأساس بناء عمودياً، بمعنى أن الملك كان يحتل أعلى مكانة في سلم السلطة، ثم يأتي بعده رجال الدين، ثم النبلاء أو الأشراف، وفي قعر العمود عامة الناس أو الرعية. وإذا أردنا بيان ذلك بعبارة أخرى، قلنا: إن بناء السلطة يتخذ شكلاً هرمياً مؤلفاً من أربع طوابق، وهي: "الأعلى"، و"العالي"، و"المتوسط"، و"الداني". وأما في مسار الثورة الفرنسية، فقد انهار هذا الهرم والسلم الطبقي العمودي، وتحول إلى مجرد تصنيف أفقي مؤلف من طرفين: "يسار" و"يمين".

### السلطة المهترئة

على أعتاب الثورة الفرنسية، كان النظام الطبقي في فرنسا - على ما تقدّم ذكره - يتألف من ثلاث طبقات رئيسية. فمن بين مجموع سكان فرنسا البالغ عددهم خمسة وعشرين نسمة، كان أربعة وعشرون مليون نسمة منهم يتألفون من: الفلاحين والحرفيين والعمال الذين يشغلون الطبقة الثالثة، وأما المليون نسمة المتبقية فهي تتألف من رجال الدين والنبلاء، وسكان المدن من التجار، وهؤلاء وإن كانوا من المصنفين ضمن الطبقة الثالثة، ولكنهم لم يكونوا يعانون وضعاً مادياً سيئاً. وكانت هذه الطبقة تعرف بالطبقة "البرجوازية". وكان البرجوازيون المرفهون نسبياً والذين كانوا يعرفون بوصفهم من أهل العلم والمعرفة، هم من أكثر الفئات الاجتماعية الفرنسية طليعية، وكما سنرى، فإن أفراد هذه الطبقة لعبوا الدور الأهم في مسار الثورة الفرنسية. وقد أخذ هؤلاء

من الناحية الاعتقادية يفكون أواصر علاقتهم مع المسيحية الرسمية بالتدرّيج، وفي المقابل كانوا يندفعون بشدة نحو مبادئ من قبيل: "التنوير" المتمثلة بأمور مثل: (الحرية، والإنسانية، والعقل)<sup>[1]</sup>.

وكان رجال الدين ينقسمون إلى جماعتين، وهما: القساوسة الشرعيين، والقساوسة غير الشرعيين. وكان القساوسة الشرعيون من رجال الدين الذين ينتسبون رسمياً إلى واحدة من كنائس السيد المسيح، وهم يتمتعون بمكانة أفضل من القساوسة غير الشرعيين المنتشرين بشكل عام في القرى والأرياف.

وكان النبلاء ينقسمون بشكل عام إلى فرسان ومثقفين. وكانت الجماعة الأولى من النبلاء ينحدرون من سلسلة من النبلاء التقليديين المتقدمين، حيث يتألفون من الأشراف الذين يخلعون على أنفسهم ألقاباً، من قبيل: الدوق والمركيز والكونت وما إلى ذلك. أما القسم الثاني من النبلاء فهم يستمدون نبلهم من السلاطين، ويحصلون على وظائف ومناصب في البلاط الملكي<sup>[2]</sup>.

كانت السلطة الفرنسية وعلى رأسها "لويس السادس عشر"، ترى أصالة لوجود سلسلة المراتب في إدارة الدولة، وكان يذهب إلى الاعتقاد بأن الله قد منح البشر قدرات غير متكافئة، وعليه فمن "الطبيعي" أن يتم تقسيم المناصب والمواهب الاجتماعية والمادية بشكل غير متساوي، وإن العمل على خلاف هذه القاعدة، يمثل خروجاً على الإرادة الإلهية. وفي هذا الإطار كانت فرنسا - خلافاً لبلدان أخرى مثل إنجلترا -

[1] - انظر: إريك هابزبام، عصر انقلاب (عصر الثورة)، ترجمه إلى الفارسية: علي أكبر مهديان، ص 27، نشر ما، طهران، 1374 هـ ش.

[2] - انظر: أكبر ماليه وجول آيزاك، تاريخ قرن هيجدهم، انقلاب كبير فرانسه وامبراتورى نابليتون، ترجمه إلى الفارسية: رشيد ياسمي، ص 355 - 360.

تقوم على اتحاد وثيق للغاية بين السلطة والكنيسة<sup>[1]</sup>. فكانت الكنيسة تضيف الشرعية السياسية على سلطة الملك، وكان الملك في المقابل يدعم الكنيسة مالياً، من خلال تخصيص "حق العشر"<sup>[2]</sup> لها.

في السنوات التي سبقت الثورة، كانت الدولة الفرنسية تواجه الكثير من المشاكل. ومن بين هذه المشاكل الهامة هي الحروب التي اندلعت بين بريطانيا وفرنسا. وقد تحدّث أريك هابزبام - أكبر مؤرخ معاصر - حول هذه الحروب قائلاً: "إن التنافس الدولي - بمعنى الحرب حول مصادر بلد ما - تدخل البلد في اختبار لا يمكن مقارنته بأي معيار واختبار آخر. وعندما لا تكون الدول قادرة على اجتياز هذا الاختبار، تتضعض أركانها وتبدأ بالتصدّع، ثم تنهار. ومن بين أنواع هذه المنافسات الكبرى في جزء رئيس من القرن الثامن عشر للميلاد، ما حدث من نزاع وجدل بين بريطانيا وفرنسا، الذي يمثل في معنى من معانيه النزاع بين الأنظمة القديمة والأنظمة الحديثة؛ لأن فرنسا رغم ازدهارها السريع في التجارة وفي إمبراطوريتها الاستعمارية - الأمر الذي كان يستفز بريطانيا - يمثل السلطة الأقوى والأبرز والأكثر تأثيراً، وباختصار: يمثل النموذج الخالص للسلطة التقليدية والإرستقراطية المطلقة. ولم يبرز تفوق النظام الاجتماعي الحديث على القديم في أي موضع من المواضع، مثلما تجلّى في هذا النزاع الفرنسي - البريطاني"<sup>[3]</sup>.

[1] - انظر: ول ديورانت، تاريخ تمدن (قصة الحضارة)، عصر نابليون، ترجمه إلى الفارسية: إسماعيل دولت شاهي وآخرون، ج 11، ص 4، نشر علمي فرهنكي، طهران، 1374 هـ ش.

[2] - حق العشر من جميع المحاصيل والأرباح كان يدفع إلى رجال الدين كضرائب تصب في مصلحة الكنيسة.

[3] - انظر: إريك هابزبام، عصر انقلاب (عصر الثورة)، ترجمه إلى الفارسية: علي أكبر مهديان، ص 29 - 30.

وعلى الرغم من تفوق فرنسا - بشكل عام - على إنجلترا من حيث الثروة وعدد السكان، إلا أن هذه الحروب المتواصلة قد أثقلت كاهلها. كما كانت الأوضاع الداخلية - من ناحية أخرى - زاخرة بالفوضى والاضطراب. حيث لم تكن المنظومة الاجتماعية لإدارة المجتمع تختلف عن تلك التي كانت سائدة في البلاد قبل خمسة قرون. حيث كان لكل ولاية من الولايات الفرنسية قوانينها وأساليبها وموازينا الخاصة. إذ يصل عدد الأنظمة والقوانين في هذا البلد إلى 285 نظاماً!<sup>4</sup> كما كان الجهاز القضائي يعاني بدوره من تشتت يصل إلى حدّ المرض واللعنة. فحتى ما قبل أعوام قليلة من الثورة كان يتم انتزاع الاعتراف من المتهمين من خلال إخضاعهم لعمليات تعذيب ممعن في الوحشية والقسوة. وكان الآلاف من حاشية وبطانة البلاط غارقين في التبذير والإسراف دون حدود، وكانوا في الوقت نفسه يمعنون في مضاعفة الضرائب على الفقراء من الناس لمصلحة السلطة والكنيسة. كل ذلك وضع الشعب الفرنسي على شفير الانفجار.

إن الذي مثل الضربة الأخيرة التي قصمت ظهر السلطة الفرنسية، هي حروب الاستقلال في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد كانت بريطانيا وفرنسا خصين تقليديين لدودين لبعضهما، وكان الفرنسيون يندحرون أمام البريطانيين في أغلب تلك الحروب. أما في حرب الاستقلال الأمريكي فقد عمدت فرنسا إلى تحشيد كل طاقاتها لنصرة الأمريكيين، وبالتالي تمكنت أغلب المستعمرات الإنجليزية في أمريكا من الحصول على الاستقلال، وبذلك تكبّدت بريطانيا خسارة مدوّية. بيد أن هذه الحرب وتبعاتها مثلت على المقلب الآخر نهاية السلطة الفرنسية. فبعد

[4] - انظر: أكبر ماليه وجول آيزاك، تاريخ قرن هيجدهم، انقلاب كبير فرانسه وامبراتورى نابليون، ترجمه إلى الفارسية: رشيد ياسمي، ص 340 - 350.

نهاية الحرب زادت نفقات السلطة الفرنسية على أرباحها بمقدار عشرين بالمئة، وذهبت جميع جهود تحسين الوضع الاقتصادي أدراج الرياح. وفي نهاية المطاف أمر الملك الفرنسي - لغرض إيجاد حل للأزمة الكبيرة التي وجد نفسه غارقاً فيها - بانعقاد مجلس مضي على انعقاد آخر اجتماع له مئة وسبعين سنة، ألا وهو مجلس "العموم" أو ما اصطلح عليه حينها بـ (الأوتوجينرو)<sup>[1]</sup>.

## بداية الثورة

لقد صدر تعميم على جميع رجال الدين والنبلاء والبارزين من عامة الناس في عموم الولايات والمقاطعات الفرنسية، إلى ترشيح أنفسهم للاجتماع في هذا المجلس. بيد أن الأمر الذي يستحق الالتفات هو أن ماهية هؤلاء الأعضاء كانت تختلف عن سابقتها إلى حد كبير. بعبارة أخرى: إذا تجاوزنا رجال الدين، فإن الكثير من النبلاء في تلك الحقبة قد تواطأوا مع الطبقة الطليعية من البرجوازيين. يذهب ول ديورانت إلى الاعتقاد بأن ما يقرب من 95% من النبلاء الفرنسيين قد تحولوا بالتدرج إلى برجوازيين. حيث ربطوا ألقابهم بالثروة الجديدة والعقول المفكرة والمثيرة للطبقة المتوسطة<sup>[2]</sup>، وبالتالي كانت هناك مصالح مشتركة تربط ما بين الطبقتين.

وعلى كل حال فقد صدر الأمر بانعقاد مجلس العموم في الثامن من

[1] - كان هذا المجلس التشريعي الخاص، والذي حمل اسم (Etat-Genraux) يتألف أعضاؤه من ثلاث طبقات، وهم: طبقة النبلاء من البرجوازيين والإقطاعيين والذين ينتخبهم الملك، وطبقة رجال الدين، وطبقة العوام من المزارعين والعمال والحرفيين والتجار. وكان من مهماته تحديد الميزانيات ونفقات الجيش والمرزقة ونفقات الكنائس وغيرها. وقد تأسس بأمر من ملك فرنسا (فيليب الرابع) عام 1302 م. المعرب.

[2] - انظر: ول ديورانت، تاريخ تمدن (قصة الحضارة)، عصر نابليون، ترجمه إلى الفارسية: إسماعيل دولت شاهي وآخرون، ج 11، ص 5.

ديسمبر - أيلول من عام 1788 للميلاد، ليقدم المشورة للملك، ويمدّ له يد العون في حل مشاكل البلاد. بيد أن هذا المجلس - بالإضافة إلى ما ذكر - كان يختلف عن سابقه في أمور أخرى أيضاً. فقد أذعن الملك تحت إصرار وزير الضرائب "نيكر" بأن يكون للطبقة الثالثة - بسبب كثرة أعداد أفرادها - حضور وتمثيل وأصوات مساوية للطبقتين الأوليين في المجلس المقبل. الأمر الآخر أنه تمّ التساهل في شروط الترشيح والمشاركة في الانتخابات بحيث يمكن للمزيد من الأفراد والمواطنين أن يشاركوا في هذه الانتخابات؛ حيث يُسمح لمن أكمل سن السابعة والعشرين، وسدد ما يُستحق عليه من الضرائب مهما كان مقدارها في العام الماضي، أن يشارك في الانتخابات. والأمر الثالث والأهم هو أن الملك قد أضاف إلى دعوته طلباً يفرض على كل مجلس منتخب بأن يرسل له "مدونة" تتضمن جميع الشكاوى والطلبات والمشاكل التي تعاني منها كل طبقة في أي مقاطعة من مقاطعات البلاد. وقد كانت هذه المدونات بمنزلة الأفاعي التي قام الملك لويس السادس عشر بتربيتها وتنشئتها في كمّه؛ إذ شكلت البذور الأولى لمراحل الثورة الفرنسية.

وفي هذه المرحلة التاريخية لعب "أبيه سيس" - رجل الدين الفرنسي المؤثر - دوراً بارزاً. حيث أعد مدونة تدعو إلى ضرورة مواكبة رجال الدين لعامة الناس. إذ كان يرى أن الفرنسيين من الطبقة الثالثة والبالغ عددهم أربعة وعشرين مليون نسمة يمكنهم الحديث باسم فرنسا ولسان حالها. وقد احتدم الجدل بين الممثلين حول تسمية المجلس، وناقشوا بند "ما إذا كان يجب تسميته بالمجلس الوطني"، وكان التصويت لصالح هذه التسمية يعني استقلال مجلس العموم والأوتوجينرو عن ملك فرنسا. وبالفعل فقد أجري التصويت، وكانت

النتيجة أن صوت 490 نائباً بالإيجاب، في مقابل 90 صوتاً بالنفي. فتعهد الممثلون بإقامة الملكية الدستورية بدلاً عن السلطة الاستبدادية المطلقة للملك لويس السادس عشر. ومن هنا يمكن القول إن الثورة الفرنسية من الناحية السياسية قد بدأت في السابع عشر من يونيو - حزيران عام 1789 للميلاد<sup>[1]</sup>.

وبهذا لم يكن للثورة الفرنسية "قائد" بالمعنى المتعارف، بل كان يتزعمها جماعة من الذين أطلق عليهم مصطلح البرجوازيين. وقد تبلورت أفكارهم من الليبرالية التقليدية "الفلاسفة" (الكتاب ومشاهير المستنيرين في عصر التنوير)، واتضح مطالبهم البرجوازية في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر في تلك السنة. وقد اعتبروا الملكية الخاصة حقاً طبيعياً ومقدساً لا يمكن المساس به، وطالبوا باستمرار النظام الملكي وحضور الملك على رأس السلطة السياسية الفرنسية، ولكنهم - في الوقت نفسه - تمسكوا بعقيدتهم القائلة بأن جميع الناس يولدون أحراراً وسواسية، ويجب التعامل مع جميع أفراد البشر تحت سقف القانون بالتساوي.

لم يوافق الملك على ما تمت المصادقة عليه، وأطلق بموجبه على المجلس عنوان المجلس الوطني، وأصدر أمراً بإغلاق المنافذ المؤدية إلى محل إقامة الممثلين. وفي المقابل تعاهد الممثلون فيما بينهم، وأقسموا على عدم مبارحة أماكنهم ما لم يتم تغيير الدستور. وفي نهاية المطاف أذعن الملك لمطالبهم في الخامس من يونيو - حزيران، أي: بعد ثمانية أيام من الاستفتاء، وقبل بتطبيق نظام الملكية الدستورية. ومنذ ذلك الحين أطلق المجلس المنتصر على نفسه اسم "مجلس

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 19 - 20.

المؤسسين". وكان هذا المجلس حتى الثلاثين من ديسمبر - أيلول، حيث تواجد الملك في المجلس للمصادقة على الدستور الجديد، أي بما يقرب من سنتين وأربعة أشهر، هو الذي يدير دفة الأمور في فرنسا. وبعد شهر واحد من تأسيس المجلس، هجم المواطنون في باريس على قلعة الباستيل بوصفها من أشهر السجون الخاصة بالسجناء السياسيين وأكثرها رعباً، واقتلعوا حجارتها حجارة حجارة، حتى أحكموا سيطرتهم عليها. وقد مثل الاستيلاء على الباستيل - بوصفه نموذجاً للاستبداد الملكي - ذروة الانتصار الكامل للثورة الفرنسية.

### مجلس المؤسسين

لقد كان مجلس المؤسسين هو الحاضنة التي أنجبت مفهوم اليسار واليمين. ففي الجلسات الأولى لهذا المجلس كان الممثلون يصنفون على أساس الطبقة التي ينتمون إليها، أو على طبق مجاورتهم للحوزة الانتخابية. ولكن لم يمض طويل وقت حتى بدأ تصنيف الممثلين يتم على أساس تشابه الأفكار والعقائد السياسية. وبذلك تشكلت الأحزاب السياسية الأولى، فكان أنصار الإصلاح الذين يعرفون أنفسهم بأصدقاء الشعب يجلسون إلى يسار رئيس المجلس، بينما يجلس الذين يميلون إلى النظام الملكي السابق - والذين يعرفون بالنبلاء أو الإرسقراطيين - إلى يمين رئيس المجلس. وكان بين هذين التيارين مجموعة من الممثلين المستقلين الذين يجلسون في الوسط حيث رفعوا شعار الحياد وعدم الانحياز. وكان هؤلاء الحياديون أنفسهم ينقسمون فيما بينهم إلى الوسط اليساري والوسط اليميني. وكان يمين الوسط يتألف من أنصار مونتسكيو، وكانوا يطالبون بوجود أن تقوم في فرنسا حكومة



دستورية شبيهة بالسلطة الدستورية في إنجلترا، وأن يكون لها مجلس للأعيان ومجلس للعموم. وأما يسار الوسط فكانت عقائدهم أقرب إلى سلوك اليساريين، وكانوا يقولون بأن سياسة المجلسين المتبعة في إنجلترا تتباين مع أصل المساواة الوطنية<sup>[1]</sup>. ولكننا إذا ألقينا نظرة عامة على أوضاع المجلس، سنجد هيمنة لليسار آخذة بالازدياد والاتساع التدريجي بمرور الأيام.

وبعد توقيع الملك للدستور، تم حل مجلس المؤسسين، وحلّ محله المجلس التشريعي. وفي هذا المجلس واصل التياران الرئيسان في المجلس السابق (مجلس المؤسسين) نشاطهما. فكان إلى اليمين تيار الحركة الدستورية الذي يرى ضرورة احترام الحقوق والقوانين التي ينص عليها الدستور فيما يتعلق بصلاحيات الملك، وكان إلى اليسار الجمهوريون الذين يطالبون بالإسراع في إلغاء صلاحيات الملك. واعتبار منصب لويس السادس عشر مجرد منصب تشريفي لا أكثر. وقد شكل هؤلاء الجمهوريين تجمعاً لهم في صومعة "سانت أونويه" حيث كانوا يعقدون اجتماعاتهم هناك، حيث عرفوا باليعاقبة.

### العالم على أعتاب الثورة الفرنسية

في تلك الحقبة كانت فرنسا بالإضافة إلى بريطانيا تشكلان القوتين العظمتين في تلك المنطقة، وكان من الطبيعي بعد التحول الجذري والعميق الذي شهدته فرنسا أن ينعكس ذلك على الأوضاع في عموم القارة الأوروبية. لم يكن أحد من حكام أي دولة من الدول الأوروبية سعيداً بالأحداث والمتغيرات في فرنسا، وأخذوا يرون خطراً في تسلل

[1] - انظر: أكبر ماليه وجول آيزاك، تاريخ قرن هيجدهم، انقلاب كبير فرانسه وامبراطوري نابليون، ترجمه إلى الفارسية: رشيد ياسمي، ص 400 - 405، طهران، 1345 هـ.

العقائد الثورية إلى بلدانهم. وبالتدريج أخذت الحروب الشاملة تندلع بين الثوار الفرنسيين وسائر الأمم الأوروبية. بيد أن الثوار كانوا يمتلكون - بالإضافة إلى الفنون والخطط القتالية - عنصر التضحية والفداء، فكانوا لذلك يخرجون منتصرين من جميع هذه المعارك، ويتركون وراءهم بذور النزعة الثورية مغروسة في وعي الكثير من الأمم الأوروبية. وبغض النظر عن بريطانيا - التي كانت في صراع تقليدي مع فرنسا فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية - ظهرت دول أخرى جاهرت بمخالفتها لفرنسا. ومن أهم تلك الدول هي النمسا، حيث كان لها وشائج وأواصر وثيقة مع الملك الفرنسي لويس السادس عشر والأسرة الملكية الحاكمة في فرنسا عموماً، وقد عرف هؤلاء النمساويين بالبوربون، وقد وجدوا في الثورة الفرنسية ضد الملك الفرنسي خطراً وتهديداً كبيراً على مصالحهم.

وسرعان ما اندلعت الحروب. وحيث وجد الشعب الفرنسي في هجوم النمسا وبروسيا على بلادهم تلبية لاستغاثة لويس السادس عشر، بغية إعادته إلى السلطة، فاقم ذلك من حقدهم على لويس السادس عشر وسلطته، وكانوا لذلك يزدادون تمسكاً وتشبثاً بأفكارهم الثورية.

وفي المجلس التشريعي احتدم الخلاف بين اليساريين حول أولوية أن تدخل فرنسا في حروب عالمية أو سلوك طريق الصلح والسلام والهدنة. الأمر الذي أدى إلى ظهور اصطفا ملفت للانتباه بين اليساريين أنفسهم، حتى أخذ اليساريون المتطرفون الذين يدعون إلى خوض الحرب، يصفون المخالفين للحرب من اليساريين باليمينيين. وبدأنا في هذه البرهة نشهد مساراً أخذ فيه المتطرفون من اليساريين يطردون زملاءهم من ربة اليسار ويدفعون بهم دفعا إلى التيار الآخر. وقد تكررت هذه الظاهرة مراراً طوال تاريخ الصراع المحتدم بين اليسار

واليمين. وعليه لا بد من التركيز على هذه الظاهرة أكثر.

إن الأمر الذي يجب أخذه بنظر الاعتبار في هذا الشأن هو أن اليسار واليمين ليسا من المصطلحات المطلقة. إنما اليسار واليمين يعكسان الموقع والموقف الذي تتخذه الجماعة السياسية في مرحلة من المراحل. ومن المحتمل أن تبادر تلك الجماعة نفسها إلى تغيير موقفها في فترة ومرحلة زمنية أخرى. وعليه يكون كل من مفهوم اليسار ومفهوم اليمين مفهوماً نسبياً، بيد أن هذه النسبية لا تعني أنها أموراً جوفاء لا تأثير لها. إن اليسار واليمين لا يقدمان مجموعتين من النظريات الثابتة، بل هما طيفان أو "محوران" ينتقلان من جيل إلى جيل آخر<sup>[1]</sup>.

### الثورة بين الأخذ والرد

في فترة الحروب بين فرنسا والنمسا وبروسيا، انتقل "لويس السادس عشر" من محل استقراره الدائم في فرساي الواقعة في ضاحية باريس، ليسكن في قصر التوليري في قلب باريس. وكان هذا القصر مراقباً من قبل اليعاقبة، وبعبارة أدق: كان الملك الفرنسي محجوزاً في هذا القصر. وكان اليعاقبة هم الذين يديرون شؤون باريس، وكان "دانتون" اليعقوبي الشهير محافظاً لباريس. وقد شهدت تلك السنوات - علاوة على الأزمات والفوضى المنتشرة في عموم الداخل الفرنسي، والحروب الاستنزافية الخارجية - مجاعة تسبب به الجفاف الذي قضى على المحاصيل الزراعية. حتى كان من الصعوبة بمكان العثور على رغيف خبز في باريس، وكانت المجاعة قد أفضت مضاجع الناس. وفي تلك الفترة حثّ اليعاقبة الشعب على الثورة، والاتجاه نحو قصر

[1] - انظر: نوربرت بابيو، چپ وراست اهمیت یک تفکیک، ص 16، ترجمه إلى الفارسية: علي أصغر سعیدی، علم وادب، طهران، 1384 هـ ش.

التويلري، حيث قتلوا جميع حراس القصر. وحيث كان الثوار يُرجعون جميع مشاكلهم إلى مؤامرات الملك الخائن، لم يعودوا يقبلون بما دون إقالة الملك وعزله عن السلطة، وحل النظام الملكي.

وفي خضمّ تلك الأحداث، بادر اليمينيون في المجلس التشريعي - الذين كان يصرون على التأكيد على الملكية الدستورية وضرورة حضور الملك على رأس السلطة السياسية في البلاد، وكانوا يمثلون الأغلبية في المجلس - إلى الاعتراض مستدلين لذلك بأن النظام الثوري في فرنسا يقوم على ثلاث ركائز، وهي: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية. وحيث أخذ الناس يفرغون السلطة التنفيذية من محتواها، لا يعود هناك من محل للسلطة التشريعية من الإعراب. وعليه لا بدّ من حل المجلس التشريعي. وسرعان ما نال هذا القرار - سواء أكان صائباً أم خاطئاً - رضا الناس والتيار اليساري في المجلس. فأنهى المجلس أعماله، وحلّ محله أكثر المجالس راديكالية وتطرفاً شهدته تلك المرحلة من التاريخ البشري في الأول من أكتوبر من عام 1791 للميلاد، ألا وهو المجلس التنفيذي المعروف بـ "مجلس المدراء".

وخلالاً للمجلس التشريعي، كانت الأكثرية في "مجلس المدراء" في جانب تيار اليسار، وبطبيعة الحال كان اليسار في تلك الفترة قد تحوّل إلى جماعتين متعارضتين، وهم الجيرونديون الحمائم وأغلبهم من سكان المدن من غير الباريسيين، واليعاقبة الصقور والمحاربين الذين يرون كل شيء مختزل في باريس.

وقد واصل "مجلس المدراء" نشاطه على مدى ثلاث سنوات، شهدت فرنسا خلالها أسوأ مراحلها دموية. حيث كانت النزاعات وتصفية الحسابات قائمة على قدم وساق، وكانت سوق المحاكم

الثورية عامرة. حيث كانت المحاكم تسلم لائحة الاتهام للشخص في حدود الساعة العاشرة، وكان عليه أن يعرّف نفسه إلى المحكمة حتى ما قبل الساعة الثانية عشرة، ليصدر عليه الحكم في تمام الساعة الثانية، وفي تمام الساعة الرابعة يتمّ تنفيذ الحكم الصادر بحقه، وكان في الغالب يتم من خلال قطع الرأس بحدّ المقصلة.

وقد اعتبرت الانتفاضات الشعبية العارمة في تلك المرحلة ثورة فرنسية أخرى، وهي ثورة أكثر "يسارية" بأضعاف مضاعفة عن دستورية عام 1789 للميلاد، وكانت على استعداد حرق كل ما كان سائداً في تلك المرحلة. وكان هذا المجلس هو الذي أصدر قرار عزل الملك، وحل النظام الملكي، وتأسيس الجمهورية الفرنسية الأولى بتاريخ الثاني والعشرين من أيلول عام 1792 للميلاد<sup>[1]</sup>. وبعد ذلك بشهرين تمّ ضرب عنق الملك بالمقصلة بعد مصادفة المجلس المذكور على ذلك.

كان النظام الجديد بزعامة اليعاقة يرى أولى مهامه في تحشيد الجماهير في مواجهة الجيرونديون والمطالبون بعودة الملكية. وحيث كانت جموع الثائرين في باريس ترتدي سراويل من نوع خاص تميزت تلك الجموع بوصف "أصحاب السراويل". وكانت هذه الجموع هي التي تحكّم الشارع وتعمل على مساندة الجموع الغاضبة والحانقة على أصحاب الثروة ودعاة عودة الملكية. وعليه فإن مركزية الدولة الجديدة المتمثلة باليعاقة وأصحاب السراويل قد تشكلت من أشد أنواع الحكومات اليسارية المتطرّفة في تلك الحقبة، وكانت تواجه بطبيعة الحال أعتى المشاكل في ذلك الحين. حيث شهدت تمرّد ستين

[1] - انظر: ول ديورانت، تاريخ تمدن (قصة الحضارة)، عصر نابليون، ترجمه إلى الفارسية: إسماعيل دولت شاهي وآخرون، ج 11، ص 62.

مقاطعة من بين مجموع المقاطعات الفرنسية - البالغ عددها ثمانين مقاطعة - على الحكم في باريس، ولولا وجود اليعاقبة وعلى رأسهم حقوقي متطرف مثل روبسبير، لكانت الدولة الثورية في فرنسا قد انهارت على الصعيد العملي.

لقد تم القضاء في تلك المرحلة على البقية الباقية من الإقطاعيين، وأقر نظام التصويت العام بوصفه حقاً من حقوق الشعب والجماهير. كما أقر العمل على مواجهة الدين، واطمحت سلطة الكنيسة عملياً، وكذلك الكثير من الأمور التي تمّ العمل بها للمرة الأولى في تلك المرحلة، حيث ظهر إلى الوجود عالم جديد لم يسبق للشعب أن رأى مثيلاً له. لقد أقام اليعاقبة أكثر الحكومات مثالية لأنصارهم، وأكثرها رعباً وهولاً بالنسبة إلى معارضيهم. وقد شهدت تلك الأعوام القضاء على الكثير من الجيرونديون تحت طائلة التناغم مع الملك وبطانته من الارستقراطيين. وبعد الفراغ منهم، وصل الدور إلى اليعاقبة المخالفين لروبسبير أنفسهم، بحيث لم تعد المقصلة في ربيع عام 1794 للميلاد، تميّز بين اليسار واليمين. حتى كانت الحرب وحدها هي التي أبقت على أنصار روبسبير رغم العزلة التي وجدوا أنفسهم فيها. وفي نهاية المطاف وصل الدور إلى حكومة روبسبير - التي كانت تعتمد في كل أمورها على الجماهير - لتحقيق بها نقمة الجماهير، حيث انقلبت عليها شفرة المقصلة التي كانت حتى ذلك الحين هي التي تتحكم بها، ليعدم بها في الثامن والعشرين من حزيران سنة 1794 للميلاد. وهناك كانت الثورة في أقصى يساريتها قد تخلت عن اليسار إلى الأبد<sup>[1]</sup>.

[1] - انظر: إريك هابزبام، عصر انقلاب (عصر الثورة)، ترجمه إلى الفارسية: علي أكبر مهديان، ص 90.

الفصل الثالث

الليبرالية

## الفصل الثالث:

## الليبرالية

أسلم الفرنسيون مقاليد أمورهم - بعد خمس سنوات صاخبة عجاف مفعمة بالمجاعات والحروب والنزاعات - إلى حكومة تدار من قبل لجنة من الحكماء. وأخذ البرجوازيون من حملة أعباء الثورة الأوائل يعودون إلى السلطة بالتدرج. وعاد الاحترام للملكية الخاصة بعد أن كان اليعاقبة قد انتهكوها. وبدأت الكنيسة تتحرر من سطوة اليعاقبة، وأخذ الناس يمارسون طقوسهم الدينية والمذهبية بمزيد من الأمن والسكينة. وقد شهدت تلك السنوات بلورة شخصية لقائد عسكري فذ اسمه (نابليون بونابارت)، وقريباً سيُسلم العالم قياده إليه. ولكن على الرغم من اعتبار تاريخ فرنسا في تلك الأعوام واحداً من أهم مراحل التاريخ خطراً، بيد أننا نضطر إلى الخروج عنه قليلاً، لتحدث شيئاً ما عن بريطانيا التي شهدت في ذات الفترة ثورة صناعية. وهي ثورة قد أحدثت - شأنها شأن الثورة الفرنسية - شرخاً كبيراً ترك بتأثيره العميق في تاريخ الفصل بين تيار اليسار وتيار اليمين، حيث أخذنا نشهد هوة بين العامل وربّ العمل، أو البروليتاريا والبرجوازية.

## الليبرالية التقليدية

قبل كل شيء لا بد من البحث بشأن المفكرين الإنجليز المؤثرين في حقل العلوم الاجتماعية، باعتبار ذلك مقدمة للدخول في دائرة الفضاء الفكري لإنجلترا في تلك الحقبة الزمنية. ولهذا السبب نعود



إلى سنوات ما قبل الثورة الفرنسية، لكي نعمل على ربطها ثانية بالعالم الاجتماعي اللاحق لها. لقد عرفت إنجلترا بوصفها مهد الليبرالية، ولكن يجب القول: رغم الاستعمال الكثير لمصطلح الليبرالية، حتى في الحوارات اليومية المتداولة بين الناس، كان الفرد يضيع في متاهة معانيها المختلفة والمتنوعة.

يذهب الكثير من المحققين إلى اعتبار الليبرالية ظاهرة تفوق الأيديولوجيا<sup>[1]</sup>. لا لأن الليبرالية ليست أيديولوجيا، بل لأن القسم الأكبر من الأيديولوجيات والمدارس الفكرية المتنوعة في العالم قد تمخضت من رحمها، أو أنها آمنت بقواعدها وأصولها الأساسية تصريحاً أو تلميحاً. ويمكن الوقوف على هذه الحقيقة في تسمية هذه الأيديولوجيا، فإن الليبرالية مشتقة من مفردة (liberty) بمعنى الحرية، حيث كانت أمنية الحرية أو الخلاص حاضرة في وجدان كلا التيارين (اليسار واليمين)، رغم اختلافهم الجذري في فهم معنى الحرية وطرق الوصول إلى إليها. فمن ناحية تاريخ الفكر السياسي في الغرب، كانت الليبرالية تمثل عقيدة الطبقة البرجوازية الفتية التي رفعت راية المعارضة ضد الحكومات الأوروبية المطلقة والمستبدة، وطالبت بتحديداتها ضمن أطر القانون والدستور<sup>[2]</sup>. وعلى هذا الأساس فإنه رغم إمكان القول: إن الليبرالية كانت في بداية الثورة الفرنسية تعد مدرسة ثورية، إلا أنها على مرّ الزمن وفي مواجهة المسائل الاجتماعية والسياسية، أخذت تعتبر يمينية من وجهة نظر اليسار المتطرف. وعلى

[1] - انظر: اندرو هيوود، مقدمه نظريه سياسي، ترجمه إلى الفارسية: عبد الرحمن عالم، نشر قومن، طهران، 1388 هـ ش.

[2] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه هاي سياسي در قرن بیستم (تاريخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 15، نشر ني، طهران، 1388 هـ ش.

كل حال فإن الليبرالية الراهنة تعدّ من أهم المذاهب اليمينية. إن الليبرالية ترى المجتمع مجموعة من الأفراد الذين يتمتعون باستقلالية في العمل، ويسعون وراء تحصيل مصالحهم الخاصة. ولهذا السبب يذهب الليبراليون إلى الاعتقاد بأن العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع يجب أن تكون في صيغتها المثالية أمراً طوعياً بالكامل، وأن يكون لكل شخص الحق في أن يكون بمأمن من التطبيق الاعتباطي للسلطة<sup>[1]</sup>.

وقد كان (توماس هابز) من أوائل المنظرين الذين خلقوا صورة للإنسان بوصفه فرداً منفصلاً عن المجتمع بالكامل. فحيث كان يعيش في مستهل العصر الجديد، كان يرى أفراد البشر كائنات فردية وبنفعية لا تسعى إلا وراء حاجاتها الخاصة، ولا تسير إلا بوحى منها، ولكن - بسبب القسوة الذاتية في وجود الإنسان - إذا لم يكن هناك قانون ينظم حياة الناس فيما بينهم، فإنهم سيأكلون بعضهم. من هنا فإن أفراد المجتمع - في إطار حفظ الأمن - يضعون قدرتهم الفردية تحت تصرف الحاكم ضمن العقد الاجتماعي، كي يتمكن من خلال توظيف السلطات الكبيرة الممنوحة له من إقامة النظم في المجتمع. وعليه لا بد من إطاعة حكم الحاكم دائماً، وذلك لأن وجوده ضروري لحفظ أرواح الناس. من هنا فإن هابز لا يرى المجتمع والحياة الاجتماعية جزءاً من ذات الأفراد - كما كان يرى أرسطو طاليس - بل هو عقد ثانوي يبرمونه فيما بينهم تطوعاً.

وعلى الرغم من أن فهم (هابز) لفردية الإنسان قد ترك تراثاً قيماً لمن تلاه من الليبراليين، إلا أن تأييده لاستبداد السلطة لاقى

[1] - انظر: باري ستوارت كلارك، اقتصاد سياسي تطبيقي، ص 91، ترجمه إلى الفارسية: عباس حاتمي، نشر كوير، طهران، 1389 هـ.ش.

مخالفة من المفكر الإنجليزي (جون لوك) الذي كان يُعدّ في حينها من أهم المنظرين الليبراليين.

كما كان (جان لوك) - مثل هابز - يرى المجتمع حصيلة "عقد اجتماعي". إلا أنه - بخلافه - لم يكن يسيء الظن بالأشخاص، ويرى أنهم يتمتعون بقوة العقل والتفكير التي يمكنهم من خلالها اكتشاف القوانين الطبيعية، لتلبية مصالحهم، كما تمثل بيئة صالحة لتعريف الحكومة<sup>[1]</sup>. كان (جان لوك) - خلافاً لهابز - يرى ضرورة تحديد سلطة الدولة حتى الإمكان؛ لأن كل تدخل من قبل الدولة في الشؤون الخاصة للأشخاص يعمل على سلب حرياتهم. لقد استدل (جان لوك) في مقالين له لإثبات أن الملكية الفردية على أنفسهم وأعمالهم حقيقة بديهية ثابتة حتى قبل قيام العقد الاجتماعي لتأسيس الدولة. وعليه فإن الحفاظ على هذه الملكية الخاصة من أهم واجبات الدولة.

لقد شهدت إنجلترا طوال هذه الأعوام، الكثير من الاضطرابات السياسية، حتى تمكنت من الدخول في مرحلة الثورة الصناعية بالتدرج.

## الثورة الصناعية

لو أننا اعتبرنا الثورة الفرنسية برمتها ثورة سياسية، فإن مجموع المتغيرات التي تعرف بالثورة الصناعية، هي في الواقع ثورة اجتماعية أحدثت تغييرات جذرية وعميقة في مجمل بنية حياة البشر. لقد تبلورت الثورة الصناعية في ظل متغيرات متعددة الجوانب. فقد ارتفع عدد السكان بشكل ملحوظ نتيجة تحسّن الأوضاع الصحية، وتضاعفت طرق المواصلات الرابطة بين كل من بريطانيا وفرنسا والولايات

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 93.

المتحدة الأمريكية، حيث كانت هذه البلدان تشكل أهم مراكز وعواصم الثورة الصناعية والاقتصادية، واتسعت خطوط الملاحة البحرية بشكل غير مسبوق. وسرعان ما التحق أسطول السفن التي تعمل على قوّة البخار بالسفن الشراعية القديمة، الأمر الذي أسهم - بشكل تصاعدي - في تسريع حركة الإنسان والبضائع وظاهرة الهجرة والتجارة على نحو مذهل. وفي خضم ذلك كان عالم "الثورات المزدوجة"<sup>[1]</sup> يشهد مناخاً جديداً وغير مسبوق بالمرّة.

وقد كانت بريطانيا تمثل قلب هذه الثورة الصناعية. ففي تلك الحقبة كانت بريطانيا تختلف اختلافاً ملحوظاً عن سائر البلدان والدول الأوروبية الأخرى، حيث كانت تتراوح بين ما يشبه الأوضاع الفرنسية من الثورات المستمرة والاضطرابات المتواصلة، وبين ما يشبه وضع ألمانيا من المعاناة من الأنظمة الاجتماعية القديمة والبالية. ففي بريطانيا "بعد ما يقرب من القرنين من الإعداد التدريجي الهادئ، لم يكن هناك ما يمكنه أن يشكل عقبة أو عائقاً جوهرياً أمام عناصر الانتاج والازدهار الاقتصادي وتكديس الثروة"<sup>[2]</sup>. في ظل السياسة البريطانية القائمة على التمثيل البرلماني، والاجتذاب الهادئ والمتواصل للثروات من المستعمرات التي لا ينضب معينها، والأهم من ذلك: الاستعانة بنظريات المنظرين من أمثال: آدم سميث، ومالتوس، وريكاردو ونظرائهم، كانت إنجلترا تحفر شخراً عميقاً بينها وسائر

[1] - يُصطلح على الفترة ما بين عامي 1789 و1848 للميلاد عصر الثورات المزدوجة. والمراد من ذلك: الثورة السياسية الفرنسية، والثورة الصناعية الإنجليزية، حيث يقوم العالم الأوروبي الجديد على ركيزتيهما، وهو ما يعرف بـ "عصر الحدأة" أيضاً. انظر: ألكس كالينيكوس، اندیشه انقلابي ماركس، ترجمه إلى الفارسية: برويز بابائي، ص 63 - 65، نشر قطرة / آزادمهر، طهران، 1383 هـ.ش.

[2] - انظر: أريك هابزبام، عصر انقلاب، ترجمه إلى الفارسية: علي أكبر مهديان، ص 218، نشر ما، طهران، 1374 هـ.ش.

البلدان الأخرى، حتى بدا من الصعب ردم الهوة الحاصلة بينها وبين سائر الدول. وبطبيعة الحال فإن الثروة الإنجليزية لم تكن ليتفجع بها الملايين من العمال الذين كانوا يكدحون في مصانعها الحديثة. فلم يكن علم الاقتصاد السياسي الذي ازدهر في بريطانيا، لينفتح عليهم أو يفتح لهم ذراعيه بحنان.

لنتحدث بتفصيل أكبر حول هذا العلم وأصحابه. لقد كان كبير الممثلين لهذا العلم في تلك المرحلة هو آدم سميث، وهو في الوقت نفسه كبير أساتذة علم الأخلاق والاقتصاد في جامعة جلاسكو. وقد طبع في عام 1776 للميلاد - وهي السنة التي اندلعت فيها الثورة الأمريكية - كتاباً في ماهية وأسباب ثروة الأمم. ويمكن اعتبار آدم سميث امتداداً لمفكرين آخرين من أمثال: أريك هابز بام، وجان لوك، والمستنيرين الإسكتلنديين.

لقد كان هؤلاء المفكرون يحملون في أذهانهم سؤالاً أساسياً يقول: "كيف يمكن الحفاظ على النظم الاجتماعي في مجتمع يشهد تغيراً متسارعاً؟"<sup>[1]</sup>. وقد أدرك هؤلاء بأن هناك بشكل عام نوعاً من التعارض بين المصالح الفردية لأعضاء المجتمع، وبين المطالب والقرارات الحكومية للدولة. ولذلك كانوا يتساءلون قائلين: في الصراع المحتدم بين مصالح الفرد والمجتمع، هل يجب تغليب مصلحة الفرد على المصلحة العامة أم العكس؟ لقد كان التوفيق بين المصالح الفردية والمصالح العامة بالنسبة إلى آدم سميث مضافاً إلى كونه مسألة اقتصادية، مسألة أخلاقية أيضاً. ولقد كان لهذه الرؤية تأثير كبير على

[1] - انظر: دون اسليتر وآخرون، جامعه بازار، ترجمه إلى الفارسية: حسين قاضيان، ص 68، نشر ني، طهران، 1390 هـ ش.

الكثير من المفكرين الذين جاؤوا بعده، ومن بينهم أحد أعتى مناوئيه، ألا وهو "كارل ماركس" أيضاً. وفي الحقيقة يكمن إبداع "آدم سميث" - الذي لقب بـ "أبي علم الاقتصاد الحديث" - في تدوين نظرية للحفاظ على المجتمع على أساس المصطلحات الاقتصادية، وعلى مبنى التجاذبات الاقتصادية.

يرى "آدم سميث" أن لدى كل فرد ميلاً ونزوعاً طبيعياً إلى التجارة، بحيث لو تركنا له الحرية وأطلقنا له العنان، فسوف ينحو من تلقائه ناحية النشاط الاقتصادي، وزيادة الانتاج. وكل تاجر يستحوذ عليه دافع الربح، وإن هذا الدافع هو الذي يلهمه الجدّ والنشاط والمثابرة. وعلى هذا الأساس رغم أن المحرك للتجار هي الدوافع الأنانية والفردية، إلا أن هذه النزعة الأنانية تعمل في الوقت نفسه وبتحريك من "أيد خفية" على مضاعفة وزيادة الثروة الاجتماعية، وتؤدي بالتالي إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية لعموم أفراد المجتمع<sup>[1]</sup>.

لقد حظيت نظرية "آدم سميث" بترحيب كبير من قبل الكثير من الطبقة البرجوازية وأصحاب المصانع في إنجلترا. وقد كانت هذه الطبقة تعمل بكل طاقتها وجهدها من أجل الحد من حجم تدخل الدولة في الاقتصاد؛ وذلك لاعتقادهم بأن العالم الاقتصادي يقوم على أساس منطقته الخاص (أو ما اصطلح عليه باليد الخفية"، وأن كل تدخل من قبل الدولة من شأنه أن يضرّ به ويحرفه عن مساره. وفي الحقيقة فإن النظرية الاقتصادية لـ "آدم سميث" بشأن الثروة ورأس المال، شديدة الوثوق والارتباط بنظريته الأخلاقية. فلم يكن "آدم

[1] - انظر: جون سالوين شابيرو، ليبراليسم، معنا وتاريخ آن، ترجمه إلى الفارسية: محمد سعيد حنائي كاشاني، ص 22، نشر مركز، طهران، 1380 هـ ش.

سميث" يرى الرأسمالية صيغة واضحة ومحددة للنظم الاجتماعي والاقتصادي، بل يراها حالة طبيعية في المجتمع. وكان يرى الرأسمالية شيئاً مثل "الطبيعة" و"الحسن".

إلا أن التاريخ قد أثبت أن هذه النظرية والرؤية - رغم قيامها على أساس انتقاد الاستبداد والدكتاتورية، والدعوة إلى "الحرية" - لا تقل في القسوة والهمجية عن أعتى الدكتاتوريات في العالم. ونموذج المجاعة التي أصابت إيرلندا خير شاهد ودليل على ذلك. ففي بداية القرن التاسع عشر للميلاد قامت إيرلندا باتباع السياسات البريطانية؛ فتخلت عن زراعتها وصناعاتها التقليدية، وتحوّلت إلى مزارع صغيرة ولا متناهية من مزارع البطاطس. فتحول السكان الإيرلنديون إلى جماعات مستأجرة، وكانوا يدفعون أقصى ما يمكن دفعه من الإجازات لأعداد قليلة من أرباب التجارة، الذين كانوا في الأساس يعيشون خارج إيرلندا أصلاً. وحيث لم يكن هناك من محصول آخر يزرع، ولم تكن هناك أي صناعة أخرى، لم يكن هناك من حيلة للبقاء على قيد الحياة إلا من خلال اللجوء إلى زراعة البطاطس، وأكل البطاطس. وفي عام 1845 للميلاد أصابت البطاطس آفة أتلقتها. وفي عام 1846 للميلاد أضحت الأوضاع أكثر سوءاً وتعقيداً، وفي عام 1848 للميلاد جاء الجفاف ليقضي على البقية الباقية من مزارع البطاطس، وانعدم الطعام بالمرّة.

إن الدولة الإنجليزية التي كانت سياستها هي السبب في انهيار البنية التقليدية لإيرلندا، كانت تعتقد - بتأثير من الهيمنة والسيادة الكاملة لأفكار ونظريات "مالتوس"<sup>[1]</sup> - بأن الطبيعة تفعل فعلها في

[1] - يعتبر مالتوس واحداً من علماء الاقتصاد السياسي التقليديين في إنجلترا، وكان معاصراً لـ (آدم سميث). كان (مالتوس) في نظريته العامة يجنح إلى الاعتقاد بأن النمو السكاني في المجتمع يقوم على أساس النموذج التصاعدي الهندسي أو المتواليات العددية، في حين أن مصادر الطعام محدودة،

إعادة التوازن السكاني لإيرلندا، وأن الوقوف بوجه الطبيعة سيعود بـ "نتائج قاتلة" على بريطانيا. هذا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تعيش ذروة الانتعاش والازدهار الاقتصادي، وكانت في الحقيقة من أكثر دول العالم ثراءً. وكان اللورد جان راسل - جد الفيلسوف الوجودي "بتراند راسل" - رئيساً لوزراء إنجلترا في حينها، وقد امتنع عن تقديم أبسط المساعدات للإيرلنديين الخاضعين لاستعمارهم، وقال في جواب الإيرلنديين الغاضبين الذين كانوا يرون تصدير فائض الحنطة والشعير من مزارعهم وأمام أعينهم، تحت حراسة ومراقبة مشددة من الجيش الإنجليزي: "لا تفكروا في الوقوف بوجه التصدير؛ لأن الطريق الصحيح يتمثل في الحرية التجارية التامة".

وفي الشتاء المرعب والرهيب لعامي 1846 - 1847 للميلاد - حيث اقتصرت وجبة طعام الأسر في بعض المناطق الإيرلندية، على بضع أوراق من اللفت المغلي في كل يومين - كتب ممثل الجيش البريطاني في إيرلندا مخاطباً جان راسل: "لا أتصور أن هناك في عموم أوروبا قانوناً يتجاهل ما تعانيه المناطق الغربية من إيرلندا من الحرمان، أو أن يصرّ بكل برود على مثل هذه السياسة المتبّعة"! والملفت أن جان راسل قال في مجلس العوام - في الردّ على ذلك - بكل برود: "نرى أن

---

وهي تنمو على أساس التصاعد الرياضي الطبيعي. وعليه فإن مستقبلاً قاتلاً يقف في وجه المجتمع الرأسمالي إذا لم يقدم حلاً ناجعة تفضي إلى تحديد النسل. كان مالتوس يعرف بوصفه عالماً متشائماً؛ لأنه كان يطرب لحدوث الكوارث الطبيعية، من قبيل: الطاعون والزلازل والظوفان والجفاف أو الحروب، إذ من شأن هذه الأمور أن تعمل على خفض أعداد السكان، بل كان يدعو إلى عدم تأسيس شبكات الصرف الصحي، وترك المجاري تسير في الشوارع والطرق وبين أقدام المارة، وأن يتم التأسيس للمستنقعات التي تعيش عليها الحشرات والهوام في المناطق السكنية، ويدعو إلى عدم تقديم العلاج للمرضى، وأن يتم السماح للطبيعة لكي تقوم بمهمتها المذهلة فيما يتعلق بإعادة التوازن السكاني إلى الكرة الأرضية. ويتعلق الشطر الآخر من نظريته وخطته بالفقراء والعمال؛ حيث يعتقد بضرورة تضيق الخناق عليهم اقتصادياً، وتركهم فريسة لأصعب الظروف المعيشية، كي لا يجرأوا على مجرد التفكير بإنجاب المزيد من الأولاد، وإحداث زيادة في عدد السكان.



من الأفضل إيكال الأمر إلى القطاع الخاص والتجارة السائدة". ولم يقدم لهم أي مساعدة، ولا حتى قرشاً واحداً. وقد كتب أحد المنظرين الإنجليز في تلك الحقبة: "كنت على الدوام أعيش رعباً قاتلاً من النمط الفكري الذي يحمله علماء الاقتصاد السياسي! .. وقد سمعت أحدهم يقول: أخشى أن تقل نتائج المجاعة في أيرلندا - والتي حدثت في عام 1848 للميلاد - عن المليون قتيل، وهذا هو العدد الأدنى الذي يمكن التفاؤل بحدوثه، لما يترتب عليه من النتائج الإيجابية".

وبطبيعة الحال كانت النتائج إيجابية إلى حد كبير. فعلى مدى خمس سنوات، عانت أيرلندا من مجاعة قاتلة على مرأى من أنظار إنجلترا التي كانت غارقة في الثراء الفاحش، وبغض النظر عن هروب مليون نسمة من سكان أيرلندا البالغ عددهم سبعة ملايين نسمة، تذهب أكثر التقادير تفاؤلاً إلى تسجيل مليون ونصف قتيل بفعل المجاعة. وذلك لأن السياسة الليبرالية تذهب إلى الاعتقاد بأن الفقر إنما يصيب الناس بسبب تكاسلهم وتقاعسهم عن العمل، أو في الحد الأقصى قد يحل بسبب الكوارث الطبيعية - كما حصل لأيرلندا - إلا أن هذا لا يجب عدّه مصيبة، بل هو هبة إلهية، ولا يمكن الوقوف بوجه المواهب والقضاء الإلهي المحتوم. بل علينا - من منطلق الاعتقاد الراسخ - أن نرحب بقواعد الانتصار في العالم الحديث، والمتمثلة بأسس الرأسمالية<sup>[1]</sup>.

كما سبق أن ذكرنا، فإن مفهوم "الحرية" كان يُمثل بالنسبة إلى المفكرين في تلك المرحلة أهم غاية تستحق أن تتظافر جميع الجهود الفكرية والعلمية من أجل تحقيقها. ولكن هناك الكثير من التعابير

[1] - انظر: أريك هابزبام، عصر انقلاب، ترجمه إلى الفارسية: علي أكبر مهديان، ص 200 - 210؛ وانظر أيضاً: أنطوني أربلاستر، ظهور وسقوط ليبراليسم، ترجمه إلى الفارسية: عباس مخبر، نشر مركز، طهران، 1377 هـ.ش.

المختلفة في بيان وإفادة هذا المفهوم. فقد كانت الحرية بالنسبة إلى المفكرين الذين يُعرفون بوصفهم من علماء الاقتصاد السياسي التقليدي، من أمثال: (سميث، وريكاردو، ومالتوس، ونظرائهم)، تعني التحلل من القيود والقوانين الحكومية، والاستقلال في النشاط الاقتصادي الشخصي. وقد كانوا يذهبون إلى الاعتقاد بأن القرارات الحكومية حتى إذا لم تتم على أساس من إرادة فرد واحد، بل كانت قائمة على أساس موافقة أغلب المواطنين، تبقى مسألة غير إجماعية. وعليه سيكون في تطبيقها على الجميع سلباً لحرية تلك المجموعة من المواطنين الذين لم يوافقوا عليها. كما كان لهذه المسألة وجه آخر، وهو أن الأغنياء والمنتجين الصناعيين في جميع المجتمعات يشكلون طبقة قليلة من مجموع المجتمع. ولذلك فإن مصالحهم تكون - على الدوام - متعارضة مع مصالح الجماهير. من هنا فقد ذهب علماء الاقتصاد السياسي من التقليديين إلى الاعتقاد بأن الدولة إذا تدخلت في المسائل الاقتصادية، فإن ذلك سيحمل في طياته احتمال تعريض مصالح أصحاب الثراء إلى الخطر. وقد كان هذا الأمر بالغ الخطورة من وجهة نظرهم؛ لأنه يعرض العناصر الرئيسة في تطوير الاقتصاد إلى الخطر، وهذا سيضر بالتالي في مجمل الانتاج وتكديس الثروة ومراكمتها. وبطبيعة الحال فإن تحقيق ظروف الحرية كان يتوقف على مقدمات في غاية الأهمية، ومن بينها: الاعتراف بـ "حق الملكية الخصوصية". وقد كانت الملكية الخاصة تمثل مركز الجدل الكبير المحترم بين تيار اليسار وتيار اليمين، وهو جدل لا يزال قائماً.

## الملكية الخاصة

لقد كان اليمينيون - الذي يتبعون في الاقتصاد قاعد الـ "لاسه فر"<sup>[1]</sup> الشهيرة - يخالفون أي نوع من أنواع تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية. حيث يرون أن لدى السوق نظمه التلقائي الذي يجب أن يأخذ مجراه بعيداً عن تدخل الدولة. وفي الحقبة الزمنية موضع البحث - التي تبدأ من أواخر القرن الثامن عشر للميلاد - حيث تمّ إلغاء أكثر القيود المفروضة من قبل الدولة، اكتسبت الملكية الخاصة قوةً عملية لم تكتسبها في أيّ مرحلة أخرى. أما الجناح الاقتصادي لدى اليسار، الذي كان معروفاً في تلك المرحلة بـ "الراديكالية" فكان - خلافاً لليمين - يرى الملكية الخاصة من مخلفات مرحلة ما قبل التنوير، وأن هذه الملكية الخاصة لا تختلف في شيء عن سلطة الحكومات والدول المستبدة، وأنها تعارض الأهداف التنويرية. وكان اليساريون يذهبون إلى الاعتقاد بأن الملكية الخاصة حيث تحمل في ذاتها بذور الأنا - الكامنة في الاستبداد - فإنها تتناقض مع الصالح العام للمجتمع؛ إذ لو كان هدف الأفراد في الحياة مقتصرًا على ملكيتهم الخاصة فقط، فإن النظم الاجتماعي سيأخذ طريقه إلى الانهيار. فصحيح أن جميع الأفراد في مثل هذه الظروف يمتلكون حق الانتخاب، ولكن الصحيح في الوقت نفسه أن الجميع لا يمتلكون فرصاً متساوية في حلبة التنافس. فإن الفقراء والمعدمين أو الذين يمتلكون القليل من الأموال لا يمكنهم الصمود في وجه أصحاب الثروات الطائلة. وفي الحقيقة فإن الخوف

[1] - مصطلح فرنسي (Laissez-faire) يعني الاتجاه الاقتصادي الذي لا يكون للدولة تدخل فيه أبداً، ومن هنا كان هذا الاتجاه يُعدّ من المباني الفكرية للاقتصاد الحر والليبرالية التقليدية. يعتبر مصطلح الـ (لاسه فر) جزءاً من العبارة الفرنسية (Laissez passer)، التي تعني: (دع الأمور تجري على طبيعتها). وبذلك يكون مصطلح الـ (لاسه فر) في قبال التخطيط المركزي من قبل الدولة أو تدخل الدولة في توجيه الأنشطة الاقتصادية بما يصب في مصلحتها. المعرب.

من الموت جوعاً يدفعهم إلى قبول العمل في أصعب الظروف القاسية والمجحفة والظالمة. وعليه فإذا كان اليمينيون يرون في الملكية الخاصة مقدمة للحصول على الحرية، كان اليساريون يرون فيها أرضية خصبة لانعدام العدل وإنتاج الطبقة<sup>[1]</sup>.

---

[1] - باري ستيوارت كلارك، اقتصاد سياسي تطبيقي، ص 68 - 71.

الفصل الرابع

بركان اليسار



## الفصل الرابع: بركان اليسار

كان الوضع الجديد يدفع بالقارة الأوروبية نحو ثورة شاملة، وهي ثورة قذفت بالقسم الأعظم من أوروبا في أتونها. وكما في السابق عادت فرنسا لتقف في مقدمة المتغيرات الثورية. لقد تركنا فرنسا منذ اعتلاء نابولين بونابرت للسلطة. وعليه نشير إلى متغيرات هذا البلد إلى عام 1849 م الحاسم ضمن خطوط عريضة. استمر نابليون في حكمه لإمبراطوريته من عام 1804 إلى عام 1815 م. وبعد ذلك عاد الحكم إلى فرنسا ملكياً تحت سلطة لويس الثامن عشر، واستمر حكمه إلى عام 1830 م، وبعد حكم لويس الثامن عشر، تلاه على العرش كل من شارل العاشر، ولويس فيليب الأول حتى عام 1848 م، حيث تعاقب هؤلاء الملوك على حكم فرنسا.

وطوال هذه الحقبة كانت فرنسا ساحة للاضطرابات السياسية المتواصلة. وقد حصلت الجماعات السياسية المتنوعة في فرنسا - بطبيعة الحال - بعض التجارب التي اكتسبتها من الثورة الفرنسية بالتدرج، الأمر الذي انعكس على النزاعات لتتحول من النزعة العملية البحتة، لتتخذ طابع النقاشات الأيديولوجية الجادة. وكان ورثة النزعة الثورة ينقسمون بشكل رئيس إلى ثلاث مجموعات رئيسة، وهي:

1 - "الليبرالية المعتدلة" التي تمثل اتجاه الطبقة المتوسطة العليا،

وطبقة النبلاء الليبراليين.

2 - "الرايكاكية - الديمقراطية"، التي تمثل اتجاه الطبقة المتوسطة الدنيا، وقطاع الحرفيين الجدد، والمستنيرين، والنبلاء المعارضين.

3 - "الاشتراكية"<sup>[1]</sup> التي تمثل الطبقة الكادحة والمستضعفة أو طبقة العمال في المصانع، وطبقة البروليتاريا بشكل عام.

لقد كانت الليبرالية على المستوى النظري ذات جذور فرنسية - إسبانية. وكانت الراكية منبثقة من الأصقاع البريطانية، وكانت الاشتراكية إنجليزية - فرنسية. وعلى المقلب الآخر كانت الأيدولوجية الرابعة المتمثلة في "المحافظين" حيث يمكن العثور عليها في كل مكان، ولا سيما في فرنسا وإنجلترا.

والذي ألهم الجماعة الأولى، هي ثورة عام 1789 م، والتي كانت غايتها وتطلعاتها السياسية تتمثل في حكومة ملكية دستورية شبيهة بما كان عليه الوضع في بريطانيا، مقرونة بنظام برلماني يعترف بالملكية الخاصة. وكان ملهم الجماعة الثانية الاتجاه المعتدل بين اليعاقبة بعد مرحلة الثورة، وكانت تطلعاتها السياسية تتجه إلى نظام جمهوري ديمقراطي ومنهج شبيه بـ "حكومة الرفاهية" المخاصمة للأغنياء. وكان ملهم الجماعة الثالثة، أصحاب السراويل الممثلين بالجناح المتطرف لمدرسة روبسبير والصقور من مثليه<sup>[2]</sup>.

وفي قبال هذه الجماعات الثلاث، كان المطالبون بعودة الملكية، والمحافظون التقليديون، وإلى حدّما التشكيلات الكنسية. إن هذه الجماعة الرابعة كانت تعتبر كل الجماعات الثلاث مخلة بالنظم والاستقرار، ولكن

[1] - الاشتراكية: دعوة إلى تأمين وسائل الإنتاج وعُمال الإنتاج والبضائع (بحيث تكون ملكاً للدولة). المعرّب.

[2] - انظر: اريك هابزبام، عصر سمايه، ترجمه إلى الفارسية: علي أكبر مهديان، ص 140 - 150، نشر ما، طهران، 1374 هـ ش.

على درجات مختلفة، إلا أنهم كانوا يختلفون بشدة - بطبيعة الحال - مع الاشتراكيين الذين لم يكن لهم من هم سوى إثارة الفوضى.

وعليه إذا أردنا الآن أن ننظر إلى هذه الصفحة الشطرنية في ضوء هدفنا العام من هذا الكتاب، والمتمثل بالتقابل بين تيار اليسار وتيار اليمين، فإن الإنصاف يقتضي منا اعتبار المحافظين والليبراليين المعتدلين من "اليمن"، واعتبار الراديكاليين - الديمقراطيين والاشتراكيين من "اليسار". وكانت السلطة الفرنسية على طول الانتصارات القصيرة الأجل دولة بين اليسار واليمين. ولكن يمكن القول بشكل عام إن تيار اليمين في مرحلة إمبراطورية نابليون (أو نابليون الأول)، ومرحلة عودة السلطة الملكية، كان هو الغالب على تيار اليسار بشكل عام.

ولكن بمقدار ما كان ساسة اليمين ممسكين بعصب المتغيرات في تلك المرحلة على المستوى العملي، كان اليسار في الطليعة على المستوى التنظيري. وفي هذه الحركات، كان الفوضويون من الجماعات اليسارية الهامة. وقد كان الفوضويون من الجماعات التي تعرّضت لأكبر أنواع الانتقادات من كلا التيارين، ولكن يجب أن لا ننكر وجود أفكار هامة في مجموع تصوراتهم.

## الفوضوية

على طول تاريخ الفكر السياسي، كان يُنظر إلى الفوضوية - إلى حدّ كبير - بوصفها جزيرة منعزلة عن سائر الأفكار الأخرى. وربما كان السبب الرئيس في هذه الظاهرة يعود إلى أن هذه الرؤية - خلافاً لسائر الأيديولوجيات السياسية الأخرى - لم تتوفر على مصداق عملي لها.



لقد أظهرت هذه الرؤية نفسها غالباً في إطار "الحركات الاجتماعية التلقائية". ولكن يجب أن لا نغفل عن أن عدم الإتقان والتناغم الداخلي لهذه الرؤية يُعد واحداً من عناصر تجاهلها في السنوات الأخيرة. وعلى كل حال يمكن القول بشكل عام: إن الفوضوية - التي كانت في القرن التاسع عشر تعدّ من أهم التيارات اليسارية - قد اضمحلت في القرن العشرين حتى أضحت بحكم العدم.

إن مصطلح الفوضوية (anarchism)<sup>[1]</sup> مأخوذ من اللغة اليونانية، ويراد به "عدم الحكم"<sup>[2]</sup>. وإن الفوضوية - بوصفها رؤية سياسية - عبارة عن: "مجموعة من النظريات والتعاليم والحركات التي تنفي لزوم أي تمايز بين الدولة والمجتمع"<sup>[3]</sup>.

يذهب الفوضويون إلى رفض الدولة صراحة، ويرونها "شراً لا ضرورة له". حيث يرون السلطة المطلقة التي تفرض على المواطنين بالإكراه، مرادفة للظلم المشرعن، وإن هذه السلطة تصبّ في مصلحة المقتدرين وأصحاب الممتلكات والطبقات الممتازة. وإن انتقاد الفوضويين لـ "السلطة" لا يقتصر على السلطة السياسية فحسب، وإنما يطال السلطة المذهبية والدينية، حيث يوجّه مفكرو الفوضوية سهام انتقاداتهم القاسية لرجال الدين أيضاً.

وإذا أردنا أن نتحدّث بدقة أكبر، أمكن لنا تعريف الفوضوية - من الناحية "الإيجابية" و"السلبية" - على النحو الآتي: إن الفوضوية

[1] - الفوضوية (anarchism): نظرية سياسية تقول بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها، نقلاً عن: منير البعلبكي، المورد الحديث (قاموس إنجليزي - عربي)، المعرّب.

[2] - انظر: اندرو هيوود، مقدمه نظريه سياسي، ترجمه إلى الفارسية: عبد الرحمن عالم، ص 323، نشر قومنس، طهران، 1388 هـ ش.

[3] - David E. Lowes, The Anti Capitalist Dictionary, Farenwood Publishing Ltd, 2006, p. 12.

من الناحية السلبية تعني إلغاء القانون والحكومة والدولة والسلطة والمجتمع، كما أنها من الناحية الإيجابية تعني: "نظرية الاجتماع الطوعي، وعدم المركزية، والحرية" وما إلى ذلك من الموارد<sup>[1]</sup>. ومن بين مشاهير الفوضويين التقليديين يمكن لنا الإشارة إلى: بيير جوزيف، وبرودون، وميخائيل باكونين.

إن الأفكار المشتركة بين مختلف الجماعات الفوضوية، تتمثل بنقد الدولة، والقول بالنظم الطبيعي، ومحاربة رجال الدين، والذهاب إلى نوع من الاعتقاد بالاقتصاد الحر<sup>[2]</sup>.

وفيما يتعلق بإمكانية اعتبار الاقتصاد الحر بوصفه واحداً من قواعد التفكير الفوضوي، هناك اختلاف في وجهات النظر. إذ يذهب الفوضويون إلى الاعتقاد بأن النظم يسود المجتمع بشكل طبيعي، دون أن تكون هناك من حاجة إلى مؤسسة لها اليد الطولى في فرض هذا النظم على المجتمع. فالنظم ليس بالشيء الذي يحتاج منا إلى بذل الجهد لتحصيله، بل هو شيء يزدهر ببساطة من تلقائه لو تجنب الناس التدخل فيه. إن هذه الرؤية إلى النظم شديدة الشبه بالاعتقاد السائد بين الاقتصاديين الليبراليين التقليديين فيما يتعلق بالنظم في السوق. وعليه يمكن القول: إن الفوضويين من كل فرقة أو مذهب يرجحون كفة النظام الاقتصادي الحر الذي يمنح الأفراد الاستقلالية في نشاطهم الاقتصادي.

هناك تقسيم شائع في الفوضوية يقسم هذه الفكرة إلى رؤيتين رئيسيتين، وهما: الفوضوية الفردية، والفوضوية الجماعية. وبطبيعة الحال فإن الأغلبية الساحقة من الفوضويين المعروفين يُعدّون من

[1] - Paul McLaughlin, *Anarchism and Authority, A Philosophical Introduction to Classical Anarchism*, Ashgate Publishing Limited, 2007, P. 25.

.See: Ibid, p. 327 - [2]

أتباع الفوضوية الجماعية.

إن الفوضوية الجماعية أو الاشتراكية، من أشهر فروع الفوضوية. من أمثال الماركسية (التي سوف نتحدث عنها لاحقاً بتفصيل أكبر) حيث تنبثق من الأفكار الفوضوية الاشتراكية. إن الفوضوية الجماعية فيما يتعلق بمسألة النظم في المجتمع الخالي من الدولة، تقترح قيام مجموعة من الكوميونات<sup>[1]</sup> أو الجماعات المتطوعة. وإن من بين أبرز أشكال هذه الجماعات المتطوعة من وجهة نظرهم ما يعرف بـ "الاتحاديات"<sup>[2]</sup> أو النقابات العمالية. وعليه فإن الفوضويين الجماعيين كانوا يدعون إلى نوع من الديمقراطية المتطرفة.

لقد كان (برودون) من أوائل الفوضويين الاشتراكيين. إذ كان يذهب إلى الاعتقاد بالنسق الطبيعي والحقوق الثابتة للإنسان، أي: "الحرية" و"المساواة" و"الاستقلال الفردي"، وكان يقول بأن النظام الاقتصادي الحاكم قد أطاح بهذا النسق وتلك الحقوق<sup>[3]</sup>. وقد مثل كتابه (ماهية الملكية) - وهو من أهم كتبه - هجوماً على حقوق الملكية وعلى الماركسية أيضاً. وفي المقابل كان يعتقد بنوع من التعاون الطوعي بين الأفراد لرفع الاحتياجات البشرية أكثر من اعتقاده بالحصول على المزيد من الربح الذي يمثل غاية الرأسمالية. وإن عبارته الشهيرة في هذا الكتاب، حيث يقول: "الملكية سرقة" تبين شدة تمسكه بهذا الاعتقاد. وفي مواجهة الفوضوية الجماعية أو الشيوعية، يُمثل مفهوم

[1] - الكوميون (commune): أصغر وحدات التقسيم الإداري في فرنسا وإيطاليا وسويسرا إلخ، نقلاً عن: منير البعلبكي، المورد الحديث (قاموس إنجليزي - عربي). المعرّب.

[2] - syndicate.

[3] - انظر: لشك كولاكوفسكي، جريان هاي اصلي در ماركسيسم، ترجمه إلى الفارسية: عباس ميلاتي، ص 245، نشر اختران، طهران، 1387 هـ.ش.

"الذات" أساساً للفوضوية الفردية. وطبقاً لهذه الرؤية فإن الأفراد - انطلاقاً من احتياجاتهم وتطلعاتهم - هم الذين يقرّرون ما هو الأصلح لهم. إن الفوضويين الفرديين لا ينكرون مفهوم التعاون بالمرّة، وذلك لأن هذا التعاون يعتبر ضرورياً لتلبية بعض الاحتياجات البشرية. بيد أنهم يعتقدون أن "الفرد" وحده هو الذي يستطيع بشكل حقيقي أن يقيم المجتمع الطوعي من خلال التعاون مع الآخرين. وعليه فإن هذا المجتمع لا يكون هو الهدف والغاية في حدّ ذاته، وإنما هو مقدمة وطريق ناجح للوصول إلى الأهداف الفردية المؤقتة<sup>[1]</sup>.

إلى ذلك هناك بعض الفروق بين الفوضوية الفردية، وبين الفردانية الليبرالية؛ فالليبراليون يؤمنون بأهمية الحرية الفردية بشكل كامل، ولكنهم لا يؤمنون بإمكانية تحقيق هذه الحرية في مجتمع لا يحكمه القانون<sup>[2]</sup>. وعلى هذا الأساس فإن الليبراليين يدعون إلى قيام الحكومة ومؤسسات الدولة بوصفها "شراً لا بد منه"، ويسعون في الوقت ذاته إلى الحدّ من صلاحياتها وسلطاتها. أما الفوضويون فينكرون الدولة بالمرّة، كما أن الفوضويين الفرديين - علاوة على رفضهم للدولة - ينكرون الديمقراطية أيضاً.

## ماركس

يكفي للجدول النظري لمعسكر اليسار أن تشهد حاضنته في الربع الثاني والثالث من القرن التاسع عشر للميلاد، ولادة مفكر عالمي بقامة (كارل ماركس)، وهو المفكر الذي تركت أفكاره تأثيراً عملياً ونظرياً

[1] - Lyman Tower Sargent, Contemporary Political Ideologies. A Comparative Analysis, Wadsworth Cengage Learning, 2009, P 214.

[2] - انظر: اندرو هيوود، مقدمه نظريه سياسي، ترجمه إلى الفارسية: عبد الرحمن عالم، ص 351.

على مليارات النفوس في القرن العشرين للميلاد، وبذلك فاق غيره من المفكرين بأعداد خيالية من المؤيدين. وبطبيعة الحال فإن تحديد ما إذا كان هذا التأثير الكبير كان على المستوى الإيجابي أو السلبي، يحتاج إلى دراسة مستقلة. وعلى كل حال فإن كارل ماركس ونشاطه الفكري والعملية يمثل انعطافة في تاريخ اليسار؛ إذ أمكن له أن يحقق نجاحاً باهراً في المزج بين ثلاثة تيارات فكرية كبرى، ظهرت على المستوى الأوروبي، في القرن التاسع عشر للميلاد. وقد تمثلت هذه التيارات الفكرية الثلاثة بـ: الفلسفة الألمانية، والاقتصاد السياسي الإنجليزي، والاشتراكية الفرنسية<sup>[1]</sup>. بيد أن الذي ميّز كارل ماركس في عالم "اليسار" من غيره، هو رؤيته الخاصة إلى الاشتراكية. فقد كانت الاشتراكية مفردة بدأناً نسمعها بعيد سنوات قليلة من ثورة عام 1789 م. وقد تمثل جناحها الرئيسي، بجناح "الاشتراكية الأخلاقية"، لـ (سان سيمون)<sup>[2]</sup>، و(شارل فوربيه)<sup>[3]</sup>، و(روبرت أوفين)<sup>[4]</sup>، وجناح: "الشيوعية الثورية، حيث يقف

[1] - انظر: ألكس كالينيكوس، انديشه انقلابي ماركس، ترجمه إلى الفارسية: برويز بابائي، ص 63، نشر: قطرة / آزاد مهر، طهران، 1383 هـ ش.

[2] - كلود سان سيمون (1798 - 1857 م): مفكر فرنسي نافذ، تأثر به أوغسط كونت - مؤسس علم الاجتماع - إلى حد كبير، كان عصاره من الأفكار المحافظة والاشتراكية. وكان في الاشتراكية يؤمن بالاقتصاد المنهجي أكثر من أي شيء آخر. ولكنه كان يمتلك رؤية غير ناضجة في هذا الشأن بطبيعة الحال، وكل الذي كان يقلقه هو المحاباة والفقير والبؤس الذي يعاني منه العمال في تلك الحقبة الزمنية من فرنسا.

[3] - شارل فوربيه (1772 - 1837 م): عالم اقتصاد اشتراكي فرنسي، معارض للاقتصاد التقليدي، ومن دعاة إقامة النقابات الاقتصادية. كان يتمتع بحياة هادئة، حيث أمضى الشطر الأكبر من حياته محاسباً بسيطاً في مؤسسة تجارية في مدينة ليون، وقد اختار العزلة معتمداً على كمية قليلة من المال الذي ادخره لهذه الغاية. وإن نظريته الأهم التي أدخلته ضمن دائرة الاشتراكيين المقترضين، هي النقابات العمالية، حيث كان قد أطلق عليها تسمية (فالانستر). وقد كانت ظروف فالانستر شبيهة إلى حد كبير بـ (مدينة الشمس) لكامبانيا، التي تقدم الكلام عنها.

[4] - روبرت أوفين (1771 - 1858 م): صاحب مصنع إنجليزي، ومن هذه الناحية كان مختلفاً إلى حد كبير عن سائر الاشتراكيين الأوائل الذين كانوا بمنأى عن الضغط عادة. وكانت حياته مليئة بالمنعطفات. فقد بدأ حياته من الفقر المدقع، ليتحول بعد ذلك سريعاً إلى صاحب مصنع كبير للنسيج. وقد اتجه أسلوباً مختلفاً كثيراً عن أصحاب المصانع المعاصرين له، وكان يطبق على

(بابوف)، و(بلانكي)، اللذين تميّزا من أصحاب الجناح الأول بموقفهما من الثورة الفرنسية. فقد ذهب الجناح الأول إلى رفضها، بينما وافق عليها الجناح الثاني، وسعى إلى تكميلها. لقد عاش كل من (سان سيمون)، و(شارل فوربيه) في خضم الثورة، وبالتالي تحملوا الكثير من تداعياتها وآلامها، فقد حكم على (سان سيمون) بالسجن في مرحلة الاغتيالات، وتمّ هدم بيت (فوربيه) في ليون.

وبطبيعة الحال لا بد هنا من التأكيد ثانية على أن الإخلاص لقيم التنوير لا تقتصر على هاتين الجماعتين الرئيستين في الاشتراكية، بل إنها تعدّ في الأساس نقطة اشتراك بين اليساريين واليمينيين. وعلى كل حال فإن الاشتراكيين الأخلاقيين (الذين كان كارل ماركس يسخر منهم في وصفه لهم بالطوباويين)، يذهبون إلى الاعتقاد بأن "العقل" في مسار التنوير، سيتنصر في نهاية المطاف، وأن الأفكار الاشتراكية سوف تغير وجه العالم بالتدرج. لقد كان لدى الاشتراكيين الأخلاقيين أفكار لا تختلف عن آمال وتطلعات (كامبانيا) الذي بدأ به قصة هذا الكتاب. لقد كان (شارل فوربيه) يعتقد بأن الرأسمالية - خلافاً لما يعتقد المفكرون في التيار التنويري - ليست هي الشكل الطبيعي للمجتمع الإنساني، بل على العكس من ذلك يمكن اعتبارها شكلاً غير طبيعياً؛ لأنها تنكر بعض أهم الاحتياجات والميلول الإنسانية. وعلى هذا الأساس حيث كان المستنيرون ينتقدون الاستبداد والخرافات، كان (شارل فوربيه) يصبّ جام نقده وغضبه على مجمل الحضارة المتمثلة بالمجتمع الطبقي. وفي مقابل "الجحيم الاجتماعي"

---

عماله ما يعتقد عملياً. وقد حظي أسلوبه بالكثير من الاهتمام. ثم انتقل بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ ليختبر أسلوبه هناك، ولكنه أخفق في هذا المسعى، ولم يتمكن من التسويق لأفكاره هناك بالشكل الذي يلي طموحه.

للمجتمع المعاصر، كان الطوباويون يرسمون أفقاً مغايراً للمستقبل، حيث نجد أبرز صوره في كلام (سان سيمون) إذ يقول: "إن العصر الذهبي للإنسان، لا يكمن خلفنا، بل هو ماثل أمامنا"<sup>[1]</sup>.

أما الجماعة الثانية فهم الثوريون: لقد كان (بلانكي) قد سبق (كارل ماركس) بوصفه أكبر الممثلين لهذه الجماعة. وقد كانت أفكار هذه الجماعة مستمدة من الجناح اليساري المتطرف لليساريين الجمهوريين الراديكاليين في الثورة الفرنسية. كان الشيوعيون الثوريون في تلك الفترة يرومون الذهاب إلى ما هو أبعد من تطلعات اليعاقبة، إذ أرادوا تحقيق شعار (الحرية، والإخاء، والمساواة)، من خلال إلغاء الملكية الخاصة وفرض المساواة المطلقة. لقد عمد (بلانكي) إلى دعم الطوباويين في انتقادهم الحاد للرأسمالية، كما يدعم رؤيتهم إلى شكل المجتمع في المستقبل، والذي كان يراه متمثلاً بـ "الشيوعية". إلا أنه كان - على غرار (بابوف) - يرى أن الشيوعية لا تقوم إلا من خلال إسقاط الدولة بقوة السلاح، وإقامة ديكتاتورية ثورية على أنقاضها. وكان (بلانكي) هو أول من استعمل مصطلح "ديكتاتورية البروليتاريا". وقد انتفض (كارل ماركس) على كلتا هاتين الجماعتين الاشتراكيتين، وبعد رفضه لنظريتهما؛ لعدم علميتهما وعدم واقعيتهما، سعى إلى تأسيس "الاشتراكية العلمية".

إن نقطة الانطلاق الرئيسة للاشتراكيين حتى تلك الفترة كانت تتمثل بالظروف القاسية التي تلقي بكلكها على صدور العمال، ولا سيما منها "الفقر". وأما نقطة انطلاق (كارل ماركس) فلم تكن لتكمن في الفقر، وإنما في "الاغتراب عن الذات"، بمعنى أن الأفراد

[1] - انظر: ألكس كالينيكوس، اندیشه انقلابي ماركس، ترجمه إلى الفارسية: برونز بابائي، ص 65-75.

قد انفصلوا عن عملهم وعن نتائجه المادية والمعنوية والاجتماعية التي تتخذ شكل البضاعة والفكر والمؤسسة السياسية. كما أن الإدراك الطبقي للبروليتاريا ليس إدراكاً للفقر، بل هو إدراك للاغتراب، وإن هذا الإدراك والوعي لن يحصل إلا عند بلوغ الاغتراب عن الذات قمته وذروته<sup>[1]</sup>. وعلينا أن نتحدث بشأن الاغتراب عن الذات بتفصيل أكبر.

لقد كان "الاغتراب" واحداً من موارث الفلسفة الألمانية لـ (كارل ماركس). فقد كان (هيجل) في الأساس قد أقام فلسفته حول هذا الموضوع، إلا أن (ماركس) قام بتطبيقها بعد إجراء بعض التغيير على محتواها. لقد كان الاغتراب من وجهة نظر (كارل ماركس) ينقسم إلى أربعة أقسام، وهي كالآتي:

1- الاغتراب عن المتوجات والمحاصيل الذاتية.

2- الاغتراب عن الطبيعة التي نعيش فيها.

3- الاغتراب عن المجتمع وأفراده.

4- الاغتراب عن الذات.

والقسم الرابع يمثل بشكل من الأشكال جوهر جميع أنواع الاغتراب الأخرى. والسؤال الذي نطرحه هنا، هو: متى يحدث الاغتراب عن الذات؟ إن الجواب الذي يقدمه (كارل ماركس) عن هذا السؤال، بسيط جداً؛ إذ يقول: إن الاغتراب عن الذات إنما يتحقق عندما لا يعود الإنسان مدركاً لقيمة العمل الذي يقوم به. ولكي نفهم هذا الجواب علينا أن ندرك أن "العمل" بالنسبة إلى (ماركس) يمثل المسار الذي يعمد الإنسان من خلاله إلى إبراز نفسه وإثبات وجوده

[1] - انظر: لشك كولاكوفسكي، جريان هاي اصلي در ماركسيسم، ترجمه إلى الفارسية: عباس ميلاني، ص 265.



في هذا العالم، بل إن الإنسان في الأساس لا يمكن له أن يدرك ذاته في الارتباط بعالمه إلا من طريق العمل. وبعبارة أدق: إن العمل هو الذي يحدّد "الوجود"<sup>[1]</sup>. فمثلاً: إن الفلاح طبقاً لمقتضى مهنته يقيم علاقة مع الزمن والأرض وسائر الأفراد. فهو يعلم أن عليه أن ينثر البذور في أوقات محدّدة، وأن يختار لذلك أرضاً خصبة بعينها، وعليه لذلك أن يقيم مع الآخرين ارتباطاً محدداً. إن هذه الأمور مجتمعة هي التي تضفي قيمة ومعنى ودوراً لوجوده وحياته في هذا العالم. والأهم من كل ذلك أن الفلاح من خلال مشاهدته لنتيجة عمله ونضوج محصوله، يدرك قيمته وازدهاره في هذا العالم. فإذا عمد هذا الفلاح إلى ترك الفلاحة والزراعة، سوف يفترط عقد جميع هذه الحلقات المتصلة التي أضفت القيمة والمعنى على حياته.

يذهب (كارل ماركس) إلى الاعتقاد بأن هذا ما يحدث للعمال في العالم الصناعي، ولكن لا لأنهم يتقاعسون عن القيام بأعمالهم، بل لأن العمل قد تمّت تجزئته إلى جزئيات وقطع صغيرة، ولأن العمال لم يعد بإمكانهم رؤية نتيجة أعمالهم، حتى لم تعد نتيجة عملهم مرتبطة بهم. وقد أبدع الممثل الساخر (شارلي شابلن) في فلم (العصر الجديد) في تصوير هذه الحقيقة، حيث جسّد كيف يستغرق العامل لساعات طويلة في مجرد شدّ الصمولات، حتى لا يكون له من شغل شاغل طوال فترة العمل سوى هذه الجزئية من مجموع العمل، فيكون من الطبيعي أن يغترب عن ذاته وهويته؛ إذ لا يستطيع أن يُبعد حتى أذى الذبابة عن نفسه؛ إذ فرضت عليه طبيعة العمل - طبقاً لطريقة الانتاج الرأسمالي - أن لا يكون له من مجموع العمل سوى تلك الحصة التافهة من

[1] - انظر: بان كرايب، نظريه اجتماعي كلاسيك، ترجمه إلى الفارسية: شهناز مسمى برست، ص 163، نشر: آكه، طهران، 1389 هـ ش.

الانتاج فقط. ولذلك لم يعد باستطاعته أن يدرك نتيجة عمله. وهذا يمثل نقطة البداية للاغتراب عن الذات. حيث يعود العمل والانتاج أجنبياً عنه، وخالياً من المفهوم والمعنى، وتبعاً لذلك يغدو غريباً عن طبيعته ومجتمعه أيضاً.

ولا بد من الالتفات إلى أن الاغتراب عن الذات لم يكن نهاية الطريق بالنسبة إلى (كارل ماركس) في تحليل الرأسمالية، بل بدايته. لقد كان (ماركس) يسعى - من خلال إدراكه للاغتراب عن الذات - إلى تصوير عالم لنفسه يرحو بلورته في المستقبل، وهو العالم الذي لا يعود العامل فيه منفصلاً عن ثمار عمله، وطبيعته، ومجتمعه وذاته.

أما السؤال الآخر، فهو: مع وجود مثل هذه المعضلة الكبرى، كيف أمكن للرأسمالية أن تبصر النور، وأن تواصل وجودها؟

إن الإجابة الفريدة التي يقدمها (كارل ماركس) عن هذا السؤال هي التي جعلت منه بحق واحداً من أعظم المفكرين في العصر الحديث. لقد ذهب (كارل ماركس) إلى الاعتقاد بأن الرأسمالية - مثل سائر الأنظمة الانتاجية / الاقتصادية القديمة - تقوم على أساس التناقض أو التضاد والتخالف المركزي. ففي المرحلة القديمة كان هذا التناقض والتضاد قائماً بين العبد والسيد، وفي المرحلة الاقطاعية انتقل هذا التناقض ليقوم بين الفلاح والإقطاعي، وفي المرحلة البرجوازية انتقل التناقض ليقوم بين العامل وربّ العمل. وحيث نشهد اليوم جماعة قليلة ظالمة، وجماعة كبيرة مظلومة، لا يكون هناك من فرق بين المرحلة الحديثة والمراحل القديمة. بيد أن المرحلة الحديثة تشمل على خصائص لم تكن موجودة في المراحل السابقة.

فأولاً إن البرجوازية أو الطبقة المهيمنة على المجتمع الرأسمالي،

لا تستطيع الحفاظ على حكومتها دون إجراء تغيير أو تحوّل مستمر في وسائل الانتاج<sup>[1]</sup>. ولكي نفهم هذه الجملة، لا بدّ لنا من إيضاح مفهوميين في تفكير (كارل ماركس)، وهما:

1 - القوى الانتاجية: إن القوى الانتاجية تمثل في الحقيقة ظرفية وقدرة النظام على الانتاج. إن هذه المسألة تعود إلى المستوى التكنولوجي وأسلوب تنظيم العمل أكثر من أي شيء آخر. وإن القوى الانتاجية في الرأسمالية أعظم وأكبر من أي شيء آخر على طول التاريخ. إن القوى الانتاجية هي - بمعنى من المعاني - ذات وسائل الانتاج أو أدواته.

2 - العلاقات الانتاجية: إن العلاقات الانتاجية تشير إلى أمور من قبيل: الملكية وطرق توزيع الأرباح وما إلى ذلك. بمعنى: نوع من العلاقة التي تقوم بفعل قوى أو وسائل الانتاج الخاصة بين العامل وربّ العمل.

وعليه بالاستناد إلى هذين المفهومين، نعيد قراءة عبارة (كارل ماركس) المتقدّمة: إن النظام الرأسمالي بمنزلة التنافس الاقتصادي الذي يسعى سعياً جنونياً إلى تحقيق المزيد من الربح. إذ يضطر كل واحد من الرأسماليين إلى البحث باستمرار عن سبل جديدة لتحقيق أكبر الأرباح بأقل التكاليف، ولذلك نجده شديد الارتباط بالتكنولوجيا. وهذه المسألة تتناقض مع الأنظمة ما قبل الحديثة التي كانت وسائل الإنتاج فيها ثابتة.

أما الاختلاف الثاني بين الرأسمالية وسائر الأنظمة الاقتصادية

[1] - انظر: ريمون آرون، مراحل اساسي سير انديشه در جامعه شناسي، ترجمه إلى الفارسية: باقر برهام، ص 168، نشر علمي فرهنگي، طهران، 1386 هـ ش.

السابقة عليه، فيكمن في أننا فيما يتعلق بأساليب الإنتاج الرأسمالية، كلما تقدمنا إلى الأمام تتسع الهوة ما بين العامل وربّ العمل أكثر فأكثر. والسبب في ذلك يعود إلى أن الرأسماليين يحصلون على أرباحهم من خلال الاستيلاء على جزء من حاصل عمل العامل. بيد أن ذلك يتمّ عبر آلية غير مباشرة ومعقّدة (من قبيل: الإبقاء على مستوى الأجور متدنية). إلا أن النتيجة العامة واضحة، حيث يزداد الفقراء فقراً، ويزداد الأثرياء ثراء. وإن هذا التناقض والتضاد هو الذي سيعمل على اجتثاث الرأسمالية من جذورها؛ إذ أن أعداد العمال الكبيرة والآخذة بالازدياد على نحو مطرد، ستدرك يوماً أنها تزداد فقراً، رغم الازدياد المطرد للثروة في المجتمع. إن إدراك هذه الحقيقة سوف يعمل على تحويل العمال إلى طبقة. وبعد ذلك سوف تطالب هذه الطبقة برفع هذا الظلم والحيث عنها، وحيث يكون هذا الظلم والحيث جزءاً ذاتياً من النظام الرأسمالي، فإن السعي إلى رفعه سيقترن حتماً بالقضاء على النظام الرأسمالي من خلال انفجار ثوري عارم لا يُبقي ولا يذر<sup>[1]</sup>. وإن القضاء على الرأسمالية سيقضي بدوره على الاغتراب عن الذات. بيد أن هذه الثورة لن تحدث بفعل الإرادة أو القرار الصادر من قبل جماعة من الناس، بل سيكون بفعل الحتمية التاريخية، بمعنى أن النظام الرأسمالي محكوم عليه بالزوال بفعل القوانين التاريخية الثابتة.

حان الآن وقت الإشارة إلى مفهوم جوهرى آخر في تفكير (ماركس)، ألا وهو: التقابل بين السطح والقعر. لقد كان (ماركس) مادياً، بمعنى أنه كان يعتقد بأن الذي يحظى بالأهمية هو الشرائط المادية والعينية. فإن الذهن والأفكار، أو "الوعي" والإدراك بشكل عام

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 168 - 170.

- سواء كتب لها التحقق أم لا - لا تحظى بسوى أهمية هامشية. فهي لا تعدو أن تكون قناعاً أو مظهراً للعلاقات المادية. وبهذه المقدمة لا بد من القول بأن (كارل ماركس) كان يرى أن المسائل الاقتصادية هي من أكثر المسائل مادية وعينية. ومن هنا كان يسعى إلى تقديم تحليل "علمي" لها. إن العلاقات الاقتصادية من وجهة نظره كانت تمثل حجر الأساس في المجتمع. وفي قبال ذلك كانت جميع الأمور التي نشعر خطأ أنها تملأ عالمنا، من قبيل: الثقافة والسياسة والفلسفة والحقوق، والأديان والمذاهب والأديبات وما إلى ذلك، هي بأجمعها من الأمور الفوقية الطافية على السطح. وإن من أهم وظائف السطح هو "توجيه" العلاقات الاقتصادية الكامنة في القعر والتي تشكل أساساً للأمور القائمة على السطح. وبعبارة أوضح: إن الرأسمالية تسعى - من خلال أدوات من قبيل: الحقوق أو السياسة والثقافة - إلى إظهار سلطتها وهيمنتها على العمال بوصفها أمراً طبيعياً. كان (ماركس) يعتقد بأننا بعد الثورة العمالية وسحب البساط من تحت الرأسمالية، سوف يفقد السطح آليته الرئيسة، وربما لهذا السبب سوف تزول الدولة التي كانت تمثل مركز السلطة في جميع المجتمعات الطبقيّة على طول التاريخ! وبطبيعة الحال لا بد من الالتفات إلى التفكيك بين السطح والقعر في المنظومة النظرية لـ (كارل ماركس) من التعقيد بحيث تعدّدت الأفهام بشأنها. وربما أمكن القول: إن الأفهام المتعددة للعلاقة بين هذين الأمرين، هي التي تشكل المحاور الرئيسة لتقسيم وتصنيف الماركسيين بعد وفاة المؤسس (كارل ماركس).

وفي الختام لا بد لنا من الكلام حول ما كان (ماركس) يطلق عليه

مصطلح "الشيوعية". يرى (كارل ماركس) أن الشيوعية هي العنوان الآخر للتححرر من الاغتراب عن الذات. إن الشيوعية هي التغيير الكامل للوجود الإنساني. في المجتمع الشيوعي يزول تصنيف الحياة وتقسيمها إلى دوائر خاصة وعامة، كما يزول الاختلاف بين الدولة والمجتمع. وكذلك تزول الحاجة الملحة إلى المؤسسات السياسية والحكومية، والأهم من ذلك الملكية الخاصة، وهي بأجمعها تنبثق عن تقسيم العمل. الأمر الآخر أن الشيوعية المثالية - خلافاً لما يدعيه الاشتراكيون الطوباويون - ليست في تقابل مع العالم الواقعي، وليست نظرية يمكن اكتشافها في كل لحظة من التاريخ والعمل على تطبيقها على أرض الواقع. إن الشيوعية هي في حدّ ذاتها اتجاه في التاريخ المعاصر، وإن التاريخ يسير تلقائياً باتجاه بلورة وتعزيز مقدمات هذا الاتجاه<sup>[1]</sup>.

لم يكن (كارل ماركس) مجرد منظر أو مفكراً في حقل الفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع، يترك مؤلفاته ليستفيد منها المفكرون من بعده. وفي الحقيقة كانت مسيرة حياة (ماركس) مليئة بالمنعطفات<sup>[2]</sup>. حيث أمضى شطراً كبيراً من حياته في النضال العملي من أجل تحقيق أهدافه وتطلعاته الاشتراكية والشيوعية التي آمن بها. وفي الحقيقة فإن جانباً هاماً من أهمية (كارل ماركس) في تاريخ اليسار، يعود إلى هذه الأنشطة العملية التي قام بها من أجل توحيد البروليتاريا وبث الوعي بين أفرادها. حتى كانت الانتفاضات العمالية إلى ما بعد سنوات طويلة من رحيله، تندلع

[1] - انظر: لشك كولاكوفسكي، جريان هاي اصلي در ماركسيسم، ترجمه إلى الفارسية: عباس ميلاني، ص 219.

[2] - وخير نموذج لهذه السيرة باللغة الفارسية هو كتاب آيزايا برلين، بعنوان (كارل ماركس)، انظر: كارل ماركس، آيزايا برلين، ترجمه إلى الفارسية: رضا رضائي، نشر ماهي، طهران، 1389 هـ ش.

رافعة ذات الشعار الأصلي الذي طرحه (كارل ماركس) في "البيان الرسمي الشيوعي"<sup>[1]</sup>، وهو الشعار القائل: "يا عمال العالم اتحدوا".

ففي عام 1864 م، كان (كارل ماركس) هو الرجل الأوحده في المؤتمر الدولي الذي اجتمع فيه الممثلون من أهم النقابات العمالية للبلدان الأوروبية، ومن بينها: إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبولندا. ويصطلح على هذا المؤتمر اسم "الدولي الأول". وقد كان هذا الدولي الأول يشتمل على خليط من الجماعات اليسارية التي ربما يعود السبب الوحيد لاتحادها هو البحث عن سبيل لتنظيم "العمال"<sup>[2]</sup>، بيد أن هذه التوليفة كانت تنطوي على الكثير من الاختلاف في الآراء. لقد كان أغلب الفرنسيين من أتباع (برودني). أما الإنجليز فقد كانوا مخلصين لـ (روبرت أوفين)، وكان أنصار (باكونين) يعتبرون من المنافسين الشرسين لأفكار (ماركس). لقد عمد (كارل ماركس) في هذه المرحلة إلى الدخول في جدل لا ينضب مع سائر اليساريين، وانتقد كافة الجماعات بقلمه اللاذع والقوي في الوقت نفسه. وبالتدريج أصبحت آراؤه هي الاتجاه الأول المهيمن على "الدولي الأول" وعموم تيار اليسار في أوروبا. وعلى كل حال فإن "الدولي الأول" بشكله كان مصيره الانهيار والفشل، حيث مثل الهجوم الدامي على حكومة باريس النهاية التراجيدية له.

[1] - The Communist Manifesto.

[2] - انظر: اريك هابزبام، عصر سرمائه، ترجمه إلى الفارسية: علي أكبر مهديان، ص 192.

## حكومة باريس<sup>[1]</sup>

إن ما حدث في فرنسا عام 1871 م، ويعرف اليوم بـ "حكومة باريس"، يشتمل على الكثير من الأمور العميقة بشأن الصراع بين اليسار واليمين على الساحة السياسية، حيث جسّد كلا من هذين الجناحين نقاط ضعفهما وقوتهما على نحو مبالغ به.

فمنذ عام 1870 م، احتدمت حرب ضروس بين فرنسا وبروسيا. حيث كانت فرنسا في حقبة حكم الجمهورية الثالثة تعاني أزمة اجتماعية خانقة، وقد خسرت الحرب على كافة الجبهات تقريباً. وقد كان الفرنسيون ولا سيما سكان باريس يلقون بالمسؤولية واللائمة في خسارة الحرب والإذلال الذي لحق ببلادهم من قبل بروسيا، على فشل الدولة. وبعد ازدياد الوضع سوءاً ارتفعت الأصوات المطالبة بالصلح بين الطرفين المتحاربين، إلا أن بروسيا اشترطت لذلك أن ترزح باريس تحت احتلالها.

طوال الأشهر الستة المنصرمة كانت باريس رازحة تحت محاصرة القوات البروسية، والأمر الوحيد الذي حال دون سقوطها هو المقاومة المستميتة لسكانها في مواجهة البروسيين. وفي هذا النزاع تحول السكان في باريس - من المسلحين بوصفهم من الحرس الوطني - إلى قوة كبرى للدفاع عن المدينة. وقد تمكن هذا الجيش الجماهيري من التسلح بكميات كبيرة من مختلف أنواع الأسلحة، وكانت المدافع من أهمها.

[1] - حكومة باريس (Paris Commune): اسم أطلق أول الأمر على الدولة الثورية في باريس التي قامت بعد الاستيلاء على سجن الباستيل، واستمرت من عام 1789 إلى 1795 م. ثم شاع إطلاقها على الحكومة الاشتراكية التي قامت لفترة قصيرة لا تتجاوز الشهرين من عام 1871 م، حيث تم القضاء عليها، وأعقب سقوطها إعدامات واسعة طال أكثر المساهمين فيها، الأمر الذي جعل منها واحدة من أهم المراحل السياسية في التاريخ المعرب.



كانت القرارات بشأن أساليب المقاومة تتخذ من قبل اللجنة المركزية للحرس الوطني، وقد أدرك (لويس أودولف) رئيس الجمهورية الفرنسية الثالثة أن هذه اللجنة يمكن لها في تلك الظروف أن تدعي إمساكها بزمام السلطة الفعلية. من هنا عمد إلى تسليم باريس إلى البروسيين؛ الأمر الذي فاقم من نقمة الجماهير. فقاموا بالمسارعة إلى إخفاء المدافع عن أعين البروسيين، واحتفظوا بها في أماكن آمنة، وأخذوا يعدون العدة إلى جولة جديدة من القتال. لقد دخل البروسيون إلى باريس في فترة قصيرة جداً، وسرعان ما خرجوا منها دون القيام بأية خطوة. وبقيت باريس تحت الحصار.

في الثامن عشر من شهر آذار تم إرسال جزء من الجيش الفرنسي إلى باريس للاستيلاء على ما بحوزة الناس من المدافع البالغ عددها 400 مدفعاً. بيد أن هذه القوات سرعان ما التحقت بالجماهير، وأعدمت قائدها بالرصاص ميدانياً. وبعد ازدياد قوة التمرد الجماهيري في باريس، انضم جزء كبير من الجيش الفرنسي إلى المتمردين. فلم يكن من رئيس الجمهورية إلا أن استدعى جميع القوات الموالية له، وهرب من باريس إلى فرساي.

كانت باريس تحت سيطرة الحرس الوطني بالكامل. فأعلنت اللجنة المركزية للحرس الوطني عن بيان الاستقلال، وبعد ذلك بثمانية أيام أقيمت انتخابات عامة لاختيار "شورى الحكم" كي تباشر الحكومة مهامها.

تألقت شورى الحكومة من تسعة وتسعين شخصاً من مختلف الطبقات الاجتماعية من الذين يشكلون طيفاً متنوعاً من قوى اليسار، وقد

تم انتخاب (بلانكي) رئيساً لهذه الشورى غيائياً تكريماً لمكانته؛ وذلك لأن بلانكي - الذي كان يمثل قائداً كارزميةً لليسار الفرنسي في تلك المرحلة - كان قد حبس قبل ذلك بعشرة أيام بأمر من الحكومة الفرنسية.

نجحت قرارات حكومة باريس في تحقيق أول حكومة شيوعية في العالم على أرض الواقع. وتمت المصادقة على قوانين واسعة أضفت على باريس مناخاً ومشهداً جديداً. وكانت بعض هذه القوانين عبارة عن: - إلغاء أجور البيوت المستأجرة طوال فترة الحصار (والتي كان أصحاب البيوت طوال تلك الفترة قد ضاعفوها بمقادير ملحوظة).

- إلغاء العمل الليلي في مئات المخابز في باريس.

- إلغاء حكم الإعدام.

- إحراق المقصلة.

- رصد رواتب لزوجات وأبناء أفراد الحرس الوطني الذين قتلوا في المعارك.

- إعادة أدوات العمل إلى العمال من مخازن الدولة (بعد أن أخذت من العمال بالقوة طوال فترة الحصار والقتال، حيث تم حفظها في تلك المخازن).

- تأجيل مدة دفع القروض، وإلغاء الأرباح المضافة عليها.

- إلغاء التجنيد الإجباري.

- السماح لجميع المواطنين بحمل السلاح.

- الفصل الكامل بين الكنيسة والدولة.

- مصادرة أملاك الكنيسة لصالح الدولة.
- إلغاء مادة الدين من المناهج الدراسية.
- إقرار قانون التعليم المجاني للجميع، في كافة المراحل الدراسية.
- استبدال العلم الفرنسي ذي الألوان الثلاثة بعلم يحمل اللون الأحمر فقط.

تمكنت حكومة باريس من الحصول على رضا عامة الناس على مختلف المستويات والجهات. وقد أدى التعاون الواسع من قبل الناس مع الحكومة إلى التسهيل والتسريع في أداء شؤون الدولة. حتى قال (فريدريك أنجلز) بعد ذلك: إن غياب الجيش المنظم، واستقلال المؤسسات المحلية وما إلى ذلك من الخصائص، قد أفضت في الحقيقة إلى أن لا تكون الحكومة "دولة" بالمعنى التقليدي والقمعي للكلمة، بل كانت تمثل نوعاً من المؤسسة الانتقالية التي تتجه إلى إلغاء الدولة بالمعنى القديم للكلمة.

إلا أن هذا الحقبة لم تستمر طويلاً. لقد كانت حكومة باريس تضم أفراداً من مختلف الاتجاهات، وكان كل واحد من أعضائها يمتلك الكثير من الأفكار التي رأى في هذه الحكومة مكاناً مناسباً لتحقيقها. ومن هنا فقد احتدمت الخلافات وتضاربت الآراء سريعاً، وأخذ الخلاف والنشنت بين قادة حكومة باريس يتسع يوماً بعد يوم.

ومن ناحية أخرى، عمد رئيس الجمهوري (تيير) - بعد أسبوع واحد من تشكيل حكومة باريس - إلى إعادة تشكيل قوة كبيرة، ليستأنف الهجوم على باريس. كانت المدينة تتعرض لقصف ممنهج، وكان

تفوق الحكومة بحيث لم تعد منذ منتصف الشهر فما بعد تقبل حتى بالتفاوض.

كما حظيت حكومة باريس بدعم كبير من قبل اللاجئين والمبعدين السياسيين الذين كانوا يتواجدون في باريس بأعداد كبيرة. وكان من بين تلك الشخصيات البارزة ضابط بولندي سابق يدعى (ياروسلاف دامبروسكي)، إذ كان يُعدّ من أفضل جنرالات حكومة باريس. كانت حكومة باريس تنكر الأفكار القومية، حيث نشهد في تشكيلاتها شخصيات من مختلف الجنسيات والبلدان.

وفيما يتعلق باليساريين في خارج فرنسا، كان قيام حكومة باريس بمثابة "بناء الفردوس على الأرض". حيث كانت تخرج مختلف أنواع المسيرات والمظاهرات في الدفاع عن هذه الحكومة، وإرسال مختلف الرسائل التي تحمل التعبير عن الآمال بنجاحها. إلا أن (تيير) ووزرائه قد تمكنوا في "فرساي" من قطع أي تواصل بين باريس والعالم الخارجي. وقد استحال أن يأتي أي دعم لحكومة باريس من الخارج. وبادرت حكومة باريس باتخاذ خطوة - تذكر بمرحلة روبسبير - تمثلت بتشكيل لجان باسم لجان الأمن العام، ومنحتها صلاحيات مطلقة. في ظل هذه الظروف لم يكن الحديث مطروحاً بشأن تحسين أوضاع السكان تحت ظل إدارة حكومة باريس، وإنما بشأن أصل استمرار سلطة حكومة باريس التي كانت تتعرض لقصف عنيف ومتواصل من قبل الجيش.

وفي نهاية المطاف وفي الحادي والعشرين من شهر أيار، انهارت إحدى البوابات الغربية من باريس، وتم فتح ثغرة لنفوذ الجيش إلى

داخل المدينة. لم يكن هناك برنامج واضح للدفاع عن العاصمة، وكان أفراد الشعب يقاتلون من محلة إلى أخرى. وبعد أسبوع واحد من المواجهات الدامية، تم الاستيلاء على معظم المناطق الباريسية، وانهارت أهم بؤر المقاومة في السابع والعشرين من شهر أيار أيضاً.

عُرف هذا الأسبوع في التاريخ الفرنسي بـ "الأسبوع الدامي". حيث أظهرت القوات الحكومية قسوة غير متناهية في إبادة السكان في باريس. لم تكن هناك إحصائية دقيقة بعدد الضحايا، ولكن تذهب أقل التقادير إلى موت ما يقرب من عشرين ألف نسمة في موجة من المواجهات والقتل الذريع. وهناك من أرجع أسباب تلك القسوة إلى خوف البرجوازية الفرنسية بقيادة (تيير) من نقمة الشعب المؤيد لحكومة باريس. لقد كانت البرجوازية الفرنسية محتقرة من قبل الألمان، إلا أن جلّ خشيتهم إنما كانت من الثوريين الباريسيين. حتى أن شدة ذعرهم قد قضت على أدنى شعور لديهم بالرحمة والشفقة على ضحاياهم. لقد قام (تيير) وجنرالاته بإحداث أنهار من الدم أثناء تجوالهم في شوارع باريس<sup>[1]</sup>.

وبعد انهيار حكومة باريس، تحويل الجيش إلى جماعة من القتلة. وكان يلقي القبض على كل من تحوم حوله شبهة التعاون مع حكومة باريس، ليحال إلى المحاكم، ومن هذه المحاكم كان المتهمون يواصلون طريقهم إلى مفارز الإعدام حيث أعدم ما يقرب من خمسين ألف شخص. وكان عدد المعدومين من الكثرة بحيث غصّت بهم

[1] - انظر: برايان موريس، باكونين وأناشيسم جمع غرا، ترجمه إلى الفارسية: سعيد فيض الله زاده، ص 79، نشر كتاب أمه، طهران، 1389 هـ ش.

المقابر الباريسية، ولم تعد تكفي لاستيعاب الأعداد الكبيرة؛ فكانت الجثث منتشرة في جميع أنحاء المدينة وضواحيها.

وعلى الرغم من أن عمر حكومة باريس لم يمتد لأكثر من شهرين من الأداء السياسي، إلا أن هذه الفترة كانت كافية لذكرها اليساريون طويلاً بوصفها حادثة في غاية الأهمية. وفي الحقيقة كانت حكومة باريس بمثابة الحلم الذي تمّ القضاء عليه وخنقه في مهده. وقد ألف (كارل ماركس) في هذا الشأن واعتبره "أول ثورة مباشرة للبروليتاريا في التاريخ"<sup>[1]</sup>.

وفيما بعد أضافوا قطعة من العلم الأحمر لحكومة باريس إلى كفن لينين لتدفن معه. وتمّ إرسال قطعة أخرى من هذا العلم إلى خارج الغلاف الجوي على متن أول سفينة فضاء روسية<sup>[2]</sup>.

[1] - انظر: ليسا كاره، تاريخ كمون باريس، ترجمه إلى الفارسية: بيجن هيرمن بور، ص 10، نشر أميد، النسخة الإلكترونية، 1991 م.

[2] - <http://fa.wikipedia.org/wiki/>

الفصل الخامس

اتّساع رقعة الصراع

## الفصل الخامس

### اتّساع رقعة الصراع

لو ألقينا نظرة على السنوات الأولى من القرن العشرين، آخذين بنظر الاعتبار عملية الفرز الرئيسة بين اليسار واليمين، سنشهد هناك ظاهرتان في طور التبلور في عموم العالم الغربي. وقد تجلت الظاهرة الأولى في انخفاض مستوى التدين والعقائد المذهبية بين الأوروبيين، وتمثلت الظاهرة الثانية في إقبال الحكومات على المزيد من الديمقراطية.

لقد خفّ بريق التدين في هذه الفترة إلى حدّ كبير بفعل الزخم الحاصل من التطور والتنمية التكنولوجية الجارفة. وقد تجلت هذه الظاهرة بين الأوساط العلمية والفكرية على نحو أشد وأكبر، فمثلاً: نجد جامعتي أوكسفورد وكامبرج - اللتين كانتا حتى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد، تمثلان حصناً منيعاً لرجال الدين في الكنيسة الإنجليزية - تضطران في مستهل القرن العشرين إلى التخلي عن أكثر من نصف المقاعد التدريسية لصالح أساتذة من غير المحسوبين على المتدينيين<sup>[1]</sup>. وبالتدرّج اندلعت مواجهة عنيفة بين الدين وما كان يُسمى بـ "العلم"، وأخذ الكثير مما يقع على عاتق الدين، ينتقل شيئاً فشيئاً ليكون العلم هو الذي يتولى رعايته.

إن اتساع رقعة السلوك الديمقراطي في هذه المرحلة - كما نوّه

[1] - انظر: اريك هابزبام، عصر امبراطوري (العصر الإمبراطوري)، ترجمه إلى الفارسية: ناهيد فروغان، ص 348، نشر اختران، طهران، 1382 هـ ش.



(ألبرت هيرشمان) بشأن تعميم الديمقراطية - يجب أن لا يُعزى إلى أن الدول قد أضحت أكثر أخلاقية من ذي قبل، أو أنها بدأت تميل إلى ترجيح كفة الصلح والإنسانية في الأبعاد الدولية من جهة أو الداخلية من جهة أخرى. وذلك لأن الأنظمة الديمقراطية الحديثة لم تظهر بفعل الاتفاق الشامل الذي كان موجوداً سابقاً، وإنما يعود سبب ذلك إلى أن الجماعات المختلفة التي أفتت عمرها في التقاتل والنزاعات فيما بينها، قد آمنت في نهاية المطاف إلى عبثية تلك الحروب، واعترفت بضعفها وعجزها عن حسم الأمور واكتساب السلطة لصالحها؛ فآثروا بأجمعهم سلوك طريق السلام والقبول بما تحكم به الديمقراطية. وبالتالي فقد انبثقت الديمقراطية من خلال إقامة التوازن بين الجماعات والأحزاب المتنافسة التي كانت متخاصمة ومتحاربة إلى أبعد الحدود والأعماق<sup>[1]</sup>.

وعلى كل حال فقد كان تيار اليسار هو أول من ينتفع من الديمقراطية وتحويل المجتمع إلى مجتمع لا مذهبي. وكانت أكثر الجماعات في هذه الأجواء سعادة هم الماركسيون، حيث كانوا يجمعون بين مدعيات البرجوازية بشأن العقل والعلم، وبين نبذ الدين بكل ما أوتوا من قوة<sup>[2]</sup>. ومن جهة أخرى كنا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد نشهد تغيراً جوهرياً في اصطافات قوى اليسار، وهو تغيير كان من الصعب تبيين معالمه.

وفي السنوات الأولى من القرن العشرين، كانت الدول الأوروبية

[1] - انظر: ألبرت هيرشمان، خطابه ارتجاع، ترجمه إلى الفارسية: محمد مالجو، ص 189، نشر شيراز، طهران، 1383 هـ ش.

[2] - انظر: اريك هابزبام، عصر امبراطوري (العصر الإمبراطوري)، ترجمه إلى الفارسية: ناهيد فروغان، ص 349.

المتطوّرة ترى نفسها في قمة النجاح في العالم، ولم يكن يدور في خلد ساستها أنهم في ظرف ثلاثة عقود - وهي فترة قصيرة حقاً في مسار القوى العظمى - سوف تتجزأ مركزيتهم إلى العديد من الأجزاء، وأن عدداً منها سيقف على حافة الانهيار، وأن الجزء الأعظم من هذه القارة سيبلغ أدنى مستوياته من الناحية الاقتصادية، وأن البعض الآخر سينهار، وبالتالي فإن مصير مستقبلهم سوف يتحدد على يد أصحاب القرار في كل من واشنطن وموسكو.

منذ ظهور الاصطفاف اليساري واليميني بعد الثورة الفرنسية، كانت جميع أنواع النقاش المرتبط بالمعسكر اليساري أو اليميني هي في الأساس نقاشات أوروبية. أما في النصف الأول من القرن العشرين، فقد تمثل هذا الفرز بين اليسار واليمين بين القوتين العظميين اللتين ظهرتتا على الساحة العالمية مؤخراً. وهما: روسيا التي اختارت لنفسها بعد الثورة اسم "الاتحاد السوفيتي"، وأصبحت أكبر مظهر لليسار في العالم، وفي المقابل مثلت الولايات المتحدة الأمريكية مركز استقطاب لليمين في العالم. وبذلك يكون هذا النقاش والجدل الأوروبي قد امتد إلى ما وراء القارة الأوربية؛ ليتحوّل إلى مسألة عالمية<sup>[1]</sup>. ومن ناحية أخرى نواجه في القرن العشرين ولادة ظاهرة جديدة على الساحة الدبلوماسية في العالم. حيث أن الدول الأوربية - كما سبق أن ذكرنا - قد أدركت أنها لا تستطيع لوحدها التغلب على جميع خصومها، الأمر الذي قادها إلى إنشاء الاتحاد الدبلوماسي. وبذلك أخذنا نشهد نشوء اتحادات متنوّعة في ما بين هذه الدول، الأمر الذي أخذ يدفع العالم

[1] - انظر: بل كندي، ظهور وسقوط قدرت هاي بزرگ، ترجمه إلى الفارسية: ناصر موقبيان، ومحمد قائد، وأكبر تبريزي، ج 2، ص 92، نشر علمي وفرهنگي، طهران، 1382 هـ ش.

باتجاه تعزيز القوتين والقطبين العظميين أكثر من ذي قبل<sup>[1]</sup>.

## روسيا وارثة اليسار

توجه (كارل ماركس) في السنوات الأخيرة من عمره - بعد أن ذهبت آماله لإشعال فتيل ثورة البروليتاريا في أوروبا أدراج الرياح - لينتقل إلى روسيا، وما تشهده تلك الأرض الجليدية من متغيرات متسارعة<sup>[2]</sup>. لقد كانت روسيا في مستهل القرن العشرين بلداً عجيباً وغريباً. فقد كانت الإمبراطورية الروسية المقدسة لأربعة قرون متوالية تحت حكم القيصرية، وقد امتدت رقعتها الجغرافية غرباً وشرقاً وجنوباً، وعلى الرغم من بعض التراجعات، لم يكن هناك من توقف عن الفتوح الجديدة. وكان الجيش الروسي طوال القرن التاسع عشر يعدّ أعظم قوة في العالم، وكانت التنمية وإعادة الترميم الحكومي المتواصل قد خلق وضعاً معقداً. ويمكن القول إن روسيا في تلك السنوات كانت تعاني من الضعف رغم كونها قوة عظمى. فعلى مدى تلك الأعوام كان الازدهار الصناعي الروسي المنفلت قد خلق من روسيا رابع أكبر قوة صناعية في العالم، بعد الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وألمانيا. ومع ذلك كان الشرخ بينها وبين تلك الدول الثلاث كبيراً جداً. ورغم ذلك كله كانت روسيا في الأساس بلداً زراعياً. فكان 80% من مجموع السكان يشتغلون بالزراعة، وكانت الغالبية الكبرى من بقية السكان ترتبط بشكل وثيق بالحياة القروية والريفية. هذا في الوقت الذي كان الجزء الأعظم من ارتفاع عدد السكان يتحقق في هذه

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 189.

[2] - انظر: آيزابا برلين، كارل ماركس، ترجمه إلى الفارسية: رضا رضائي، نشر ماهي، طهران، 1389 هـ ش.

القرى، وفي أكثرها فقراً بالتحديد. لقد كان الازدهار الصناعي مقترناً - على نحو ضمني - بركود عظيم أو حتى تراجع حادّ في القطاعات الاقتصادية الأخرى، ولا سيما القطاع الزراعي والاستهلاك الشخصي. وكان هذا ناشئاً - إلى حد ما - من أن أعمال التطوير كانت تبادر إليها الدولة بشكل كامل، وقلما نجد عملاً تطوعياً من قبل الناس في هذا الشأن. وكانت الدولة تتجه لتوفير الميزانية لتشغيل عجلة الصناعات الكبرى من طريق فرض الضرائب الكبيرة من جهة، وتصدير أكثر المحاصيل الزراعية من جهة أخرى. ومن هنا كانت أعداد السكان الكبيرة والمتزايدة في هذا البلد، تشهد تعقيداً وصعوبة في أوضاعها، وكانت الأزمة تتفاقم تدريجياً على مرّ الأيام.

يمكن لنا أن نتصوّر جيداً العواقب الاجتماعية التي تنشأ من التركيب الخاطيء بين الزراعة المتخلفة والتنمية الصناعية المتسارعة، والنفقات العسكرية الطائلة والباهظة. إن تخصيص ميزانية عامة متواضعة للتعليم والصحة، واقتران ذلك بوضع مؤسف مصحوب بتشديد الانضباط والعنف في المصانع، لا يبقي على كوة أمل يمكن أن تفتح على تحسين مستوى الحياة، كان قد خلق نوعاً من الكراهية المقرونة بالحنق والغضب على الدولة والرأسماليين، الأمر الذي حوّل روسيا في المجموع إلى قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في كل لحظة<sup>[1]</sup>.

وعلى الرغم من ذلك كله كان المواطنون الروس يؤمنون بأرضهم وبقيصرهم إيماناً راسخاً، بيد أن هذه الثقة كانت تذوي وتذبل رويداً رويداً. وكان من بين الأحداث التي ساعدت على ذلك الأحداث التي

[1] - انظر: بل كندي، ظهور وسقوط قدرت هاي بزرگ (ظهور وأقول القوى العظمى)، ترجمه إلى الفارسية: ناصر موفقيان، ومحمد قائد، وأكبر تبريزي، ج 2، ص 92.

عُرفت بالأحد الدامي. ففي شهر كانون الثاني من عام 1905 م، كتب جمع غفير من المواطنين الروس عريضة إلى القيصر<sup>[1]</sup>، وحملوها ليعرضوها عليه متجهين إلى قصره الشتوي في بطرسبورغ، بيد أن الجنود منعوهم من التقدم، وبعد لحظات وجيزة تأزم الموقف وأخذ منحي عنيفاً، وفتح الجنود نيران بنادقهم على الحشود المجتمعة من المواطنين، فكان من جراء ذلك أن قتل ما يقرب من ألف مواطن في هذه المواجهة غير المتكافئة، الأمر الذي أضرب بشريّة سلطة القيصر إلى حدّ كبير.

وعلى كل حال فقد انتهى حكم القيصر نيقولاي الثاني، إثر أعمال عنف شديدة، مع شيء من الإصلاحات. وفي عام 1914 م، اندلعت الحرب الكونية الأولى، وكانت نتائجه وخيمة على خلاف توقعات الروس. فلم يقتصر الأمر على عدم تحقيق الروس نصراً يُذكر فحسب، بل قد شهدت السنة الأولى وحدها من الحرب خسارة ما يقرب من ثلاثة ملايين جندي من الجيش الروسي ما بين قتل وجريح أو أسير. وبلغت الأوضاع مرحلة من التآزم الشديد، اضطرّ معها القيصر إلى التنحي عن السلطة، وبعد الكثير من الجدل السياسي تمكن واحد من الأحزاب في تلك الحقبة الروسية - واسمه "حزب العمال الاجتماعي الديمقراطي" المعروف بـ "الحزب البلشفي" - من الفوز بالسلطة<sup>[2]</sup>.

[1] - جاء في بعض فقرات هذه العريضة ما يلي: (لقد افترشنا التراب والمسكنة، وقد أصبحنا عاجزين ومتعبين لكثرة ما تم إجبارنا على القيام بأعمال شاقة تفوق طاقتنا، إننا نعاني من الذل والهوان؛ إن أرباب العمل لا يتعاملون معنا بوصفنا من البشر، إنما يحسبوننا عبيداً لهم، وأن علينا أن نلاقي مصيرنا البائس المحتوم بالصمت والسكوت ... يا صاحب السعادة! هل ينسجم هذا مع شريعة الله التي تحكمتنا باسمها؟ هل يجدر بنا نحن الشعب الروسي الكادح أن نموت بأجمعنا، كي يتمكن بضعة من الرأسماليين والحواشي ورجال الدولة الفاسدين، من أن يتمتعوا ويستمتعوا في الحياة وحدهم على حساب عناء الطبقة العاملة؟).

[2] - انظر: جيمز أي. استريكلر، روسيه تزارى (روسيا القيصرية)، ترجمه إلى الفارسية: مهدي

وقد كان زعيم هذا الحزب رجل قيادي اسمه (فلاديمير لينين) - وهو من المفسرين البارزين لـ (كارل ماركس) - وربما كان لينين هذا من أسعد الماركسيين خطأً في العالم حتى ذلك الحين.

### الماركسية ما بعد كارل ماركس

إن القرن العشرين - كما سبق أن ذكرنا - كان شديد الوطأة على الماركسيين دون سائر التيارات الفكرية والتنظيرية الأخرى. حتى كان "اليسار" في مقاطع كبيرة من القرن العشرين يعدّ مرادفاً لـ "الماركسية" تقريباً. بيد أن مسار الماركسية في القرن العشرين كان مليئاً بالمنعطفات. لقد تم تفسير أفكار ماركس في القرن العشرين بتفسيرات متنوّعة، قد تبلغ حدّ التعارض أحياناً. ويعود جزء من هذه المسألة إلى الغموض الذي يكتنف جانباً من أفكار ماركس، ويعود البعض منها إلى اختلاف البيئات الاجتماعية المتنوّعة التي تسلت إليها هذه الأفكار، ويعود بعضها إلى أن جزءاً هاماً من مؤلفات ماركس الشاب بقيت مجهولة حتى عقد الثلاثينات من القرن العشرين، وبعد اكتشاف هذه المؤلفات اتضح أن أفكار ماركس قد مرّت بسلسلة من المتغيرات والتحويلات الكبيرة منذ صدر الشباب إلى فترة النضج والاختمار. من هنا كان الكثير من الاختلافات بين الماركسيين أنفسهم يدور في الأساس حول ما الذي كان يقوله ماركس حقيقة؟

ولبيان قصة الماركسية في القرن العشرين بالالتفات إلى مختلف العناصر، يمكن لنا إجراء عملية تبويبية. ويبدو أن من بين التقسيمات المعتمدة هي تلك التي قام بها الباحث الشهير في الماركسية (ديفد

ماكلان) في كتابه (الماركسية بعد ماركس).

فقد قسّم الماركسية إلى خمسة أقسام رئيسية، وذلك على النحو الآتي:

1 - الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية.

2 - الماركسية الروسية.

3 - الماركسية الأوروبية بين الحربين.

4 - الماركسية المعاصرة.

5 - الماركسية في الصين والعالم الثالث<sup>[1]</sup>.

من الواضح أن الخوض في القسم الخامس، فوق طاقة هذا الكتاب. إلا أن تقسيمه لفروع الماركسية يرشدنا إلى توضيح مجمل التيار اليساري في الساحة النظرية للقرن العشرين.

1 - الاشتراكية - الديمقراطية الألمانية

إن المسعى الأول في إطار عرض الماركسية بوصفها نظاماً فكرياً متكاملًا، قد ظهر في كتاب (آنتي دورينك) لأنجلز. وعليه يمكن القول: إن الماركسية بوصفها "مذهباً" هي حصيلة جهود أنجلز<sup>[2]</sup>. لقد قدّم أنجلز تفسيراً وضعياً وجبرياً عن الماركسية، حيث رأى في الاقتصاد العنصر الوحيد في حدوث أي تحوّل أو تغيير في المجتمع. فقد كان يرى أن حصول المعرفة الاجتماعية، هي من قبيل حصول المعرفة في العلوم الطبيعية، ومن خلال الالتفات إلى عبارة (كارل ماركس) الشهيرة، والتي يقول فيها: "إن الأفراد يصنعون تاريخهم،

[1] - David Maclellan, *Marxism After Marx*, third edition, UK: MacMillan, 1998.

[2] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 22، نشر ني، طهران، 1388 هـ ش.

ولكن لا على النحو الذي يريدونه"، يؤمن بالديالكتيك ما بين الأفعال الإنسانية والطبيعية<sup>[1]</sup>. بيد أننا سنرى أن رؤيته وإن كانت ذات مناشئ ألمانية، إلا أنها تركت تأثيراتها العميقة على رقعة جغرافية أخرى، وهي روسيا، الأمر الذي أدى إلى بلورة الماركسية الأورثودوكسية.

**1 / 1 - الماركسية الراديكالية:** إن الماركسيين الراديكاليين، كانوا يرفضون الماركسية الوضعية والاقتصادية. إن هؤلاء كانوا يعتقدون أن هذه الماركسية سوف تتحول إلى نوع من الانفعالية في حقل السياسة، في حين أن هؤلاء الراديكاليين أنفسهم كانوا يصبون كل اهتمامهم على التأثير في الساحة السياسية، ولم يكونوا يعترفون بحدود أو قيود من أجل تحقيق تلك الغاية. وقد كان زعيمهم هو (روزا لوكزامبورغ). وقد كان لوكزامبورغ من الناحية السياسية يدعو إلى الاشتراكية الثورية الصلبة والقائمة على النزاع الطبقي العالمي، وكان يدافع عن النقابات العمالية والعسكرية بوصفها ركناً رئيساً في الثورة الاشتراكية المبكرة<sup>[2]</sup>. وقد ذكر ثلاثة عناصر لانتهيار النظام الرأسمالي وقيام النظام الاشتراكي، وهي العناصر الآتية:

**1 - الهرج والمرج والفوضى المتزايدة والأزمة المتفاقمة في الاقتصاد الرأسمالي.**

**2 - اتجاه العلاقات والمسار الانتاجي نحو المزيد من الأواصر الاجتماعية.**

**3- ارتفاع مستوى الوعي الطبقي، والعمل على تنظيم طبقة البروليتاريا.**

[1] - انظر: كمال بولادي، تاريخ اندیشه های سیاسی در غرب (تاريخ الأفكار السياسية في الغرب)، ج 4، ص 16، نشر مركز، طهران، 1383 هـ.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 65 - 66.



وبطبيعة الحال فإنه من بين هذه الأمور كان يؤمن بالعنصر الثالث، ونظم جهوده ضمن هذا الإطار. وأما بشأن العنصرين الأولين - اللذين يتم طرحهما من قبل الماركسيين الآخرين مراراً - فكان يراهما غير عمليين أو غير واقعيين؛ إذ يرى أن الرأسمالية لم تبد أي ظاهرة أو مؤشر يدل على أنها سوف تسقط بفعل التناقضات الاجتماعية. ومن هنا فإنه يرى أن بقاء الرأسمالية وقدرتها على الصمود لا تعود إلى مقومات داخلية، وإنما هي تعود إلى العوامل الخارجية. وقد عمد إلى تصوير هذا العامل في إطار نظرية باسم "الشخص الثالث". إن الازدهار الاقتصادي في ظل النظام الرأسمالي - طبقاً لهذه النظرية - لا يعود سببه إلى القوانين الفطرية الحاكمة على أسلوب وطريقة الإنتاج الرأسمالي، وإنما هو من تبعات استمرار وجود أقسام ما قبل الرأسمالية في البلدان التي استولت عليها الرأسمالية، وعملت على ضمّها إلى دائرة نفوذها<sup>[1]</sup>. كان لوكزامبورغ يذهب إلى الاعتقاد بأن هذا التيار ما أن يستولي على بلد بأكمله، فإن الرأسماليين سيضطرون إلى التطلع إلى الأجزاء والبلدان الأخرى من العالم، وهي البلدان التي لا زالت تعيش ظروف ما قبل الرأسمالية. وهذا يعني أنه يرى أن النظام الرأسمالي مجرد نظام مغلق، وإنه بالالتفات إلى قوانينه الداخلية ليس جديراً بأن يكون "حاضنة للثورة". بل إن الأمر على العكس من ذلك؛ إذ تتغذى الرأسمالية على العناصر الخارجية، وإن سقوطها التلقائي إنما يحدث عند استيلائها على جميع بلدان الكرة الأرضية وابتلاعها<sup>[2]</sup>.

[1] - انظر: هانا آرنت، روزا لوكزامبورغ، ترجمه إلى الفارسية: عزت الله فولادوند، منشور ضمن: خرد در سياست (العقل في السياسة)، خلاصة وتأليف وترجمة: عزت الله فولادوند، ص 585، نشر طرح نو، طهران، 1377 هـ ش.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 586.

وبطبيعة الحال فإن لوكزامبورغ كان يواجه بعض التناقضات على المستوى العملي والتنظيري. فإنه في الوقت الذي يؤكد من جهة على ضرورة العمل الجماهيري الفوري، معتقداً أن الاستيلاء على السلطة السياسية من قبل طبقة العمال لن يكون مبكراً أبداً، وأن الأداء السياسي لهذه الطبقة في جميع الأحوال يَعمُض عن عدم توفر الظروف الثورية، يذهب من جهة أخرى في كتيّب له بعنوان "التمرد الجماهيري" إلى القول بأن الثورة الاشتراكية لن تحقق الانتصار مرة واحدة وبجرة قلم، وإنما سوف تكتمل عبر مرحلة طويلة وبطيئة من الكفاح الاجتماعي العظيم. كما ذهب (روزا لوكزامبورغ) إلى انتقاد ثورة أكتوبر الروسية، معتبراً إياها ثورة من الأعلى، وأنها مجرد ثورة برجوازية<sup>[1]</sup>.

**1 / 2 - التعديلية:** وهي جماعة أخرى من الماركسيين الألمان، كانت ترفض الجبرية الماركسية الأورثودوكسية من جهة، وكان أفرادها يتعدون عن العمالية الراديكالية لـ (روزا لوكزامبورغ) - الذي لم يكن ليأبى عن اللجوء إلى العنف - من جهة أخرى. وقد كان هؤلاء يسعون من خلال جهودهم النظرية إلى تقديم ماركسية مطابقة للشرائط الرأسمالية المتغيرة. وقد اختار هؤلاء مصطلح "التعديلية"<sup>[2]</sup> للدلالة على اتجاههم في الماركسية. كان هؤلاء التعديليون يؤمنون بالإصلاح والتكامل التدريجي لأمر المجتمع وعدم ضرورة الثورة السياسية. لقد رفض (إدوارد برنشتاين) - وهو من المفكرين التعديليين - فكرة السقوط الحتمي للرأسمالية وانقسام المجتمع إلى قطبي (الرأسمالية

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاريخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 22.

[2] - التعديلية (revisionism): حركة في الاشتراكية الماركسية الثورية تؤيد الأخذ بروح التطور. المعرب، نقلاً عن: منير البعلبكي، المورد الحديث (قاموس إنجليزي - عربي).

والبروليتاريا)، وذهب إلى الاعتقاد بأن زوال مفهوم النزاع الطبقي - بالمعنى الذي قال به كارل ماركس - سوف يستتبع الإصلاح والتكامل التدريجي الذي يكون بديلاً عن الثورة المسلحة. إن الاتجاه الرئيس لـ (برنشتاين) في انتقاده للماركسية الأورثودوكسية، يتعلق بقانونية حركة المادية التاريخية<sup>[1]</sup>. ومن خلال رفضه لرأي (هيجل) - القائل بأن هدفية التاريخ وحركته الحتمية باتجاه ذلك الهدف - قال بأن الاشتراكية غاية أخلاقية يمكن اختياره بالإرادة.

وكان من أوائل الذين أشاروا صراحة إلى مواطن الشبه بين الماركسية التي يؤمن بيها وبين الليبرالية، حيث قال: "إن الاشتراكية الديمقراطية ليست من الناحية التاريخية فحسب، بل كذلك من حيث خصائصها المعنوية وراثتها لمشروع الليبرالية بوصفها نهضة تاريخية كبرى"<sup>[2]</sup>. وكان ينظر إلى الديمقراطية بوصفها وسيلة وغاية، خلافاً لـ (أنجلز) الذي يرى في الديمقراطية مجرد وسيلة لتحقيق الاشتراكية.

كما كان (جان جورس) من بين المفكرين التعديليين أيضاً، بيد أنه خلافاً لـ (برنشتاين) - الذي كان يرى بأن التحولات التاريخية قد أسقطت بعض أصول كارل ماركس العقائدية عن الاعتبار - يذهب إلى القول بأن هذه الأصول كانت باطلة منذ البداية. وكان من أكثر المنتقدين للمادية التاريخية، واتجه من الناحية المذهبية إلى القول بأن العالم أوسع من أن يكون مجرد تركيب للمادة والطاقة، وقال بأنه يحتوي على عنصر روحاني هو الذي يحافظ على النظام والانسجام في العالم. كما أنه - على غرار برنشتاين - ينظر إلى الاشتراكية بوصفها أصلاً أخلاقياً،

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 50.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 57.

ويرى أن تحققها يمثل شرطاً في تحسين الحياة الاجتماعية.

## الماركسية الروسية

1 / 2 - كاؤوتسكي وبلاخانوف: إن التفسير الذي قدّمه أنجلز في كتابه "آنتي دورينغ" عن الماركسية، أضحى أساساً للماركسية الأورثودوكسية لمفكرين من أمثال: (كارل كاؤوتسكي)، و(غوركي بلاخانوف).

لقد كان فهم (كاؤوتسكي) للماركسية متأثراً بنظرية التطور لـ (تشارلز دارون). وبعبارة أخرى: كان (كاؤوتسكي) يرى أن "التطور" يمثل مفهوماً مشتركاً ورئيساً في نظرية (تشارلز دارون)، و(كارل ماركس)<sup>[1]</sup>. وعلى هذا الأساس يكون (كاؤوتسكي) - تبعاً لـ (أنجلز) - قد قدّم فهماً وضعياً لفلسفة التاريخ عند (ماركس)، وهو فهم ينتهي بنا إلى الحتمية الاقتصادية. يرى (كاؤوتسكي) أنه "وإن كان من الضروري القول بنوع من الدور للإرادة والسلوك الإنساني، ولكن يجب التأكيد على الظروف الاقتصادية التي تعمل على تحديد مسار وماهية إرادة وعمل الإنسان"<sup>[2]</sup>. إن الثورة الاشتراكية - طبقاً للحتمية الاقتصادية الماركسية - لا تتحقق بالمعنى الحقيقي والواقعي للكلمة، إلا إذا توفرت الشرائط الاقتصادية اللازمة لتحقيقها.

كما تعرّض الماركسي الأورثودوكسي الآخر - أعني: (غوركي بلاخانوف) - في كتابه "دور الفرد في التاريخ" إلى هذه المسألة أيضاً، حيث بحث حجم التأثير الذي يمكن للفرد أن يتركه على مسار

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 26.

[2] - انظر: المصدر أعلاه.

التاريخ. إذ يرى أن التاريخ وإن شهد في جميع مراحل ظهور بعض الأبطال الذين قاموا ببعض الأعمال الخارقة، إلا أن ظروف وشرائط ظهور أولئك الأبطال لم تكن من صنعهم. وبعبارة أخرى: "إن الأفراد المؤثرين والنافذين قد يتمكنون - بواسطة خصائصهم الفكرية والشخصية الخاصة - من إحداث التغيير في الخصوصيات الجزئية للأحداث وبعض النتائج الجزئية، إلا أنهم لا يستطيعون تغيير اتجاه ومسار الأحداث التي تتحدد بواسطة القوى والعوامل الأخرى"<sup>[1]</sup>.

إن التبعات العملية المترتبة على مثل هذا الفهم للماركسية أوضح من أن نحتاج معها إلى المزيد من الشرح والتبسيط: فإن العمل الثوري ليس له ربط كبير بتحقيق الظروف والشرائط المثالية للاشتراكية، وإن السعي إلى الثورة الاشتراكية عمل ليس له من طائل. إنما الاشتراكية انعكاس مباشر للتغيير والتحول في الأسس الاقتصادية.

2 / 2 - لينين: بعد انتصار ثورة أكتوبر عام 1917 م في روسيا، نجحت قراءة لفكر (كارل ماركس) للمرة الأولى بأن تستولي على السلطة السياسية. إن هذه الثورة والنظام السياسي الناجم عنها قام في مستواه الأكبر على أساس من فهم (فلاديمير إيليتش لينين)، و(يوسف إستالين) لنظرية (كارل ماركس). وقد اقتصر الجزء الأعظم من الجهود الفكرية لـ (لينين) على تطبيق فكر ماركس - ولا سيما المادية التاريخية - على واقع المجتمع الإقطاعي - الزراعي لروسيا.

لقد تعرف لينين على الماركسية في صدر شبابه خلال فترة نضاله ضد السلطات القيصرية في روسيا. وكان معلّمه الأوائل في الماركسية كل من (كارل كاؤوتسكي)، و(غنوركي بلاخانوف)، ولكن لم يمض

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 36.

طويل وقت حتى اختط (لينين) لنفسه طريقاً مختلفاً عنهما في الساحة السياسية. وفي المجموع يمكن لنا أن نرصد ثلاث مراحل من المراحل الفكرية لـ (فلاديمير إلتش لينين)، وهي المراحل الآتية:

1 - المرحلة الأولى التي تميّزت بشدّة تمسّكه بالمادية التاريخية، وعلى أساسها كان يرى ضرورة لوقوع الثورة البرجوازية التي تسبق الثورة الاشتراكية.

2 - مرحلة التآرجح، حيث تراوح في الاتجاه الفكري له ما بين المرحلة الأولى السابقة والمرحلة الثالثة اللاحقة.

3 - المرحلة الأخيرة، حيث أخذ ينظر فيها إلى الماركسية من منظور الأفق الروسي، وسعى إلى تطبيق أفكار ماركس بشكل يتلاءم مع الوضع الخاص لروسيا. فمن خلال تأليفه لكتابه الذي يحمل عنوان "ما الذي يجب فعله؟" ابتعد عن الماركسية الأورثودوكسية، وعمل على تطوير نظريته الخاصة بشأن "تحقق الثورة الاشتراكية"<sup>[1]</sup>.

وإن الذي تمّ تداوله في القرن العشرين تحت عنوان "الماركسية - اللينينية"، إنما يمثل نظريات لينين بشأن "الحزب" و"الثورة المستمرة"، و"الاشتراكية الحكومية" في المرحلة الثالثة من الحياة الفكرية لـ (فلاديمير إلتش لينين). لقد عمد لينين من خلال تأكيده على الحزب الطليعي بوصفه ناظماً للجماهير، إلى العمل - بنحو من الأنحاء - على إحياء التعاليم الثورية لـ (بلانكي). وقد كان يرى استحالة إيجاد الوعي السياسي الطبقي بين الجماهير إلا من خلال حقنهم بالنظرية الثورية

[1] - انظر: كمال بولادي، تاريخ اندیشه هاي سياسي در غرب (تاريخ الأفكار السياسية في الغرب)، ج 4، ص 24.

من قبل منظمة ثورية فقط<sup>[1]</sup>. لقد كان الحزب الطليعي من وجهة نظر لينين هو العقل الأكمل الذي يدرك ما يصلح للجماهير، على نحو أفضل من إدراك الجماهير أنفسهم لما يصلح لهم.

إن مفهوم "الثورة المستمرة" من بين المفاهيم الأخرى التي تقوم عليها البنية النظرية لـ (لينين) وقد حظيت باهتمام كبير. إن هذه الاستراتيجية تقف على الطرف الآخر من النظرية الماركسية الشائعة، حيث كان الاعتقاد السائد في تلك المرحلة يقول بأن الثورة الاشتراكية لا يمكن لها الظهور إلا بعد الثورة البرجوازية. فقد ذهب لينين إلى الاعتقاد بأن الثورة الاشتراكية عندما تبدأ، فإنها توجد ما يرتقب من الثورة البرجوازية توفيره على نحو تلقائي، وعلى هذا الأساس بادر - خلافاً لـ (كارل كاؤوتسكي)، و(غنوركي بلاخانوف) - إلى إقامة الاتحاد بين الفلاحين والعمال لتحقيق النصر في ثورة عام 1917 للميلاد<sup>[2]</sup>.

إن لينين بعد انتصار الثورة، من خلال تأكيده على الوضع الإقطاعي للمجتمع الروسي، وعدم تحقق الاشتراكية فيه، كان - خلافاً للمناقشة<sup>[3]</sup> الذين كانوا يذهبون إلى ضرورة تحويل السلطة بعد الثورة إلى البرجوازيين - يدعو إلى حماية قيام الرأسمالية الحكومية في روسيا. وبذلك كانت الرأسمالية الحكومية بمنزلة البديل للرأسمالية البرجوازية في الاضطلاع بهذا الدور التاريخي. وفي الحقيقة فإن الماركسية تحولت من خلال اللينينية إلى أيديولوجيا لـ "للتنمية

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 94.

[2] - انظر: كمال بولادي، تاريخ اندیشه های سیاسی در غرب (تاریخ الأفكار السياسية في الغرب)، ج 4، ص 25.

[3] - لقد كان المناشفة أعضاء حزب يقف إلى الضد من حزب لينين المعروف بالبلشفية.

والتحديث"، واكتسبت بذلك جاذبية أكبر بالنسبة إلى الشعوب الأكثر تخلفاً من الناحية الصناعية<sup>[1]</sup>.

3 / 2 - ستالين: لقد كان يوسف ستالين شارحاً لأفكار لينين في إطار نوع من "اللينينية" الرسمية - التي تحولت إلى أيديولوجية رسمية لحكومة الاتحاد السوفيتي لاحقاً - أكثر منه منظراً في حقل الماركسية. وقد كان أهم عنصر لـ "اللينينية - الاستالينية" يتمثل في التأكيد على عامل قوة الحزب وحصر السلطة في يد الزعيم بوصفه الشخص الذي يقع على عاتقه تحديد المسار والاتجاه العام للنظام. لقد عمل ستالين بوضوح على التخلي عن التطلعات العالمية وهذا الطموح الكبير الذي اقترن على الدوام بالثورة الاشتراكية التحررية في روسيا، وركز على الحفاظ على الاشتراكية والثورة في حدود القطر الروسي فقط. من هنا فقد عمل على بناء نظام سياسي مركزي، لم تتضح معالم الجرائم والقسوة والوحشية فيه إلا بعد انتهاء فترة حكمه.

وفي عام 1931 م أعلن يوسف ستالين عن أنه قد استخرج جميع الأصول والقواعد الرئيسة للماركسية - اللينينية، بوصفها "علماء"، وأن على جميع العلماء الروس من الآن فصاعداً أن يتعاملوا مع تلك الأصول بوصفها قانوناً ثابتاً سواء في العلوم الاجتماعية أو السياسية أو العلوم الطبيعية. إن هذه الرواية الوضعية ترى جميع العلم كلاً واحداً ومتناغماً، يعرض علينا معرفة ماوراتاريخية معتبرة بشكل مطلق.

لقد تلخص حل ستالين لإقامة الاشتراكية في التسريع من حركة التصنيع، واعتباره الزراعة اشتراكية<sup>[2]</sup>. وقد واصل تطبيق سياسته هذه

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 100.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، 120.



من خلال اللجوء إلى استخدام البطش والقوة.

يتم الجمع بين هاتين الجماعتين الماركسييتين - اللتين مثلتا الجناح الرئيس لتيار اليسار في النصف الأول من القرن العشرين - تحت عنوان عام يختزل بالماركسية التقليدية<sup>[1]</sup>. وبالتدرج خرجت سائر فروع الجناح اليساري من المعترك السياسي؛ فإن الفوضويون - على سبيل المثال - الذين كانوا يمثلون نحلة رئيسة من نحل النشاط اليساري في أغلب البلدان الأوروبية، قد فقدوا جميع أنصارهم تقريباً، ولم يبق منهم سوى النزر القليل في إسبانيا<sup>[2]</sup>.

### الولايات المتحدة الأمريكية: رائدة اليمين

يجب القول بشكل عام: إن تبلور تيار اليمين في القرن العشرين قد اقترن - بالمقارنة إلى تيار اليسار - بصعوبات أكبر. فإن الكثير من المفكرين في هذه الحقبة الزمنية قد استفادوا من عناصر ونظريات معقدة يصعب تصنيفها على اليسار أو اليمين. ولكن يجب بشكل عام تعريف اليمين في هذه الحقبة من خلال مفاهيم من قبيل: الرأسمالية، والأحزاب المحافظة، والليبرالية. وفي الوقت نفسه ليس هناك من شك في أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر - من بين سائر البلدان في القرن العشرين - رائدة كل ما يمكن تسميته أو تصنيفه ضمن دائرة "اليمين".

لا شك في أن الولايات المتحدة الأمريكية قد اتصفت بأنها من أسعد دول العالم طالعاً في القرن العشرين؛ إذ تحولت من دولة

[1] - انظر: كمال بولادي، تاريخ اندیشه های سیاسی در غرب (تاريخ الأفكار السياسية في الغرب)، ج 4، ص 25.

[2] - انظر: اريك هابزبام، عصر نهايتها (عصر النهايات)، ترجمه إلى الفارسية: حسن مرتضوي، ص 91، نشر آكه، طهران، 1380 هـ.ش.

هامشية في بداية القرن العشرين، لتغدو في نهايته إلى أعظم دولة في العالم دون منازع.

هناك مجموعة من العوامل والظروف الطبيعية والاجتماعية التي تضافرت لتسمح للولايات الأمريكية المتحدة في الوصول إلى تنمية مذهلة بعد انتهاء الحروب الداخلية بين الشمال والجنوب. فقد ساعدت أمور من قبيل: الأراضي الزراعية الخصبة الشاسعة، والتحول التكنولوجي الحديث والمذهل في صناعة سكك الحديد، وقاطرة البخار، والمعدات الضرورية لاستخراج المعادن، وزوال الموانع والقيود الاجتماعية والجغرافية، وعدم وجود التهديدات الخارجية الملحوظة، وارتفاع أسهم الاستثمارات الأجنبية والداخلية، على جعل الولايات المتحدة الأمريكية تأخذ طريقها إلى التطور والازدهار في سرعة مذهلة، أعجزت الدول الأخرى عن منافستها. وكانت التكهّنات تذهب إلى القول بأن التنمية والازدهار في الولايات المتحدة الأمريكية إذا استمرّ على ذات الوتيرة، فإنها سوف تتقدم في عام 1925 للميلاد على الدول الأوروبية مجتمعة. بيد أن الحرب العالمية الأولى كبدت القوى الأوروبية خسائر اقتصادية فادحة، أسهمت في تعجيل تحقق تلك التكهّنات، لتتجلى قبل ست سنوات من موعدها<sup>[1]</sup>.

رأى كل من (ليولين) و(راكول) في كتاب لهما بعنوان "اليسار واليمين والدولة" إلى الاعتقاد بأن الدور الأبرز للولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين قد تلخص في الحفاظ على الليبرالية واستمرارها. فقد ذكرا - على سبيل المثال - أن البلدان الليبرالية كانت

[1] - انظر: بل كندي، ظهور وسقوط قدرت هاي يزرک (ظهور وأفول القوى العظمى)، ج 2، ص

تعاني في عقد الثلاثينات من أزمات حادة بحيث أصيب أكثر المفكرين الطليعيين بخيبة أمل من الليبرالية، وأخذوا يبحثون عن حياة جديدة في الفاشية والشيوعية، ولولا الدور المحوري للولايات المتحدة الأمريكية، لكان مصير الليبرالية قد سار نحو المجهول<sup>[1]</sup>. وبطبيعة الحال فإن محورية الولايات المتحدة الأمريكية في الاقتصاد أثناء الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين قد أدت إلى أن تمنى البلدان الأخرى بأفدح الخسائر بسبب انهيار الاقتصاد الأمريكي. إن الركود الكبير - الذي بلغ ذروته ما بين عامي 1929 - 1932 م - قد أصاب الليبرالية بضربة غير مسبوقه، حتى بدا أن الاقتصاد الرأسمالي يسير باتجاه الانهيار الذي تكهّن به (كارل ماركس). لقد خلقت البطالة أزمة متصاعدة في البلدان الأوروبية، حيث بلغ حجم البطالة في البلدان الأوروبية المستويات الآتية: من 22% إلى 23% في إنجلترا، و24% في السويد، و27% في الولايات المتحدة الأمريكية، و29% في النمسا، و31% في النرويج، و23% في الدنمارك، وما لا يقل عن 44% في ألمانيا. حيث سقطت جميع الدول الليبرالية تحت وطأة هذا الركود، ولم تتمكن من تجاوزه إلا الدولة النازية الألمانية بقيادة أدولف هتلر<sup>[2]</sup>. والأكثر لفتاً للانتباه في هذه المعمعة أن الاتحاد الجماهيري السوفيتي تحت القيادة الاستبدادية لـ (يوسف ستالين) والاقتصاد المبرمج، كان في مأمن من تداعيات هذه الأزمة الاقتصادية. كان الاتحاد السوفيتي يواصل خططه الاقتصادية الخمسية نحو الازدهار الاقتصادي المتسارع، حتى تحوّل في نهاية المطاف إلى قوة اقتصادية عظمى

[1] - H. Llewellyn, and Rockwell, Jr. *The Left, The Right and The State*, Alabama: Ludwig Von Mises Institute, 2008, p. 234.

[2] - انظر: اريك هابزبام، عصر نهايتها (عصر النهايات)، ترجمه إلى الفارسية: حسن مرتضوي، ص 91.

في العالم. ومع ذلك لم تكن هناك تلك الرغبة نحو اليسار بوصفه طريق حل للخروج من الركود الماحق في البلدان الأصلية الأوروبية<sup>[1]</sup>. وبدلاً من ذلك فإن الذي كان يحظى بشعبية متزايدة هي الأيديولوجية الالتقاطية والمغمورة والتي كان من أهم نماذجها الحزب القوي الاشتراكي الألماني أو "النازي".

وقد تمثلت الجهود الأخيرة لليبرالية في الحفاظ على مشروعيتها على يد الفيلسوف وعالم الاقتصاد الإنجليزي الكبير (جان مينارد كينز). وإن كان ما قام به إنما تكمل بالنجاح بعد فترة من التأخير دامت لعشرين سنة، حيث لم يتحقق الإقبال والإجماع عليها من قبل المجتمعات والدول الرأسمالية إلا بعد ذلك الحين.

### جان مينارد كينز

لقد كان (جان مينارد كينز) ليبرالياً في غاية الاعتدال. وقد جاءت منجزاته النظرية والعملية لإنقاذ الرأسمالية المأزومة في السنوات التي تخللت الحربين العالميتين. حيث أدرك أثناء دراساته الاقتصادية خطأ إحدى القراءات الليبرالية التقليدية القائمة على أن تدخل الدولة في الاقتصاد لا يساعد على تنشيط وازدهار الحراك الاقتصادي، بل لا يؤدي إلى غير اختلال قواعد السوق الحرة. وقد كان يذهب - خلافاً لخبراء الاقتصاد التقليديين - إلى الاعتقاد بأن الاقتصاد الرأسمالي الحر، والمحصن من رقابة الدولة، مخالف للحفاظ على "الاستقرار الاقتصادي"<sup>[2]</sup>. لهذا السبب - وعلى خلاف غيره من الليبراليين - يرفض

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 137.

[2] - انظر: حسين بشيريه، نيوليبراليسم،... المنشور ضمن: اطلاعات سياسي اقتصادي، ص 9.

### الانفعال التقديري للدول الليبرالية في مواجهة الركود الكبير<sup>[1]</sup>.

لقد كان (كينز) متفائلاً بالفطرة. فحتى في الفترة التي كان يتحدث فيها الجميع عن "الركود العميق" و"الأزمة"، كان يكتفي بالتعبير عن تلك الأوضاع بـ "الاضطراب". وكان يعتقد بالتطوير التدريجي للتنوير، وكان ينتقد تشاؤم الرجعيين الذين يرون في كل نوع من أنواع الإبداع أو التجريب أمراً مقروناً بمخاطر جسيمة، وكذلك تشاؤم الثوريين الذين يرون كل شيء قبيحاً، ويدعون إلى إجراء تغييرات واسعة جداً، على حدّ سواء<sup>[2]</sup>. وعلى هذا الأساس كان (جان مينارد كينز) يرسم نظاماً يدعو إلى الملكية الخاصة والسوق الحرة، وفي الوقت نفسه يدعو إلى المزيد من تدخل الدولة في مسار تحسين الأوضاع الاقتصادية. لقد كانت الدولة من وجهة نظر (كينز) دولة ليبرالية تعمل على التدخل في الاقتصاد من أجل توسيع رقعة الرفاه العام. ففي الوقت الذي كان عموم خبراء الاقتصاد التقليدي من السابقين لعصر (كينز) - من الذين كانوا يعولون على الآليات الداخلية للرأسمالية - يذهبون إلى الاعتقاد بأن مراحل الركود في النظام الرأسمالي إنما هي مراحل طبيعية تزول تلقائياً وعلى نحو تدريجي، كان (كينز) يعتقد بأن هذه الدورة الهدّامة قد لا يمكن العودة منها على المدى الطويل، وعليه يجب على الدولة أن تتدخل في الاقتصاد بشكل وآخر للوصول إلى القضاء على البطالة بشكل كامل. فإن أزمة البطالة في تلك المرحلة، كانت - كما سبق أن ذكرنا - واحدة من الأزمات الهامة، وإن كينز لم يكن يرى طريقة حلها في التعادل والتوازن

[1] - انظر: أنطوني أربلاستر، ظهور وسقوط ليبراليسم، ترجمه إلى الفارسية: عباس مخبر، ص 452، نشر مركز، طهران، 1377 هـ ش.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 453.

التلقائي في المجتمع، بل في توفير فرص العمل من قبل الدولة<sup>[1]</sup>.

لقد تحول نظام (كينز) الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية إلى أصل اقتصادي فرض على الحكومات الغربية بموجبه أن تتكفل على نطاق واسع بمسؤولية توفير فرص العمل بشكل كامل لغرض تحقيق الازدهار الاقتصادي<sup>[2]</sup>. إن الركود الكبير، كان قد أدى إلى سقوط قاعدة الـ "لاسه فر" الاقتصادية إلى حد كبير<sup>[3]</sup>. كما أن نظرية (كينز) كانت قد استوجبت الشك في الأصول النظرية لقاعدة الـ "لاسه فر" الاقتصادية، وأثبتت الحرب العالمية الثانية أن الخطة الحكومية يمكنها أن تعمل على توفير فرص العمل بشكل كامل. ولهذا السبب جاء "تدخل الدولة - بعد انتهاء الحرب - في الاقتصاد والتخطيط بمختلف الصور من أجل الحيلولة دون تكرار الركود الكبير، بوصه جزءاً أساسياً لاقتصاد الغرب"<sup>[4]</sup>. إن هذه الدول - التي انبثق أكثرها من بين الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية - قد اشتهرت بدول الرفاه. وبطبيعة الحال لا ينبغي عدّ هذه الدول يسارية، بمعنى أنها لم تكن تدعو إلى القضاء على الرأسمالية أبداً، بل كانت تسعى إلى خفض من حدة بعض الأنشطة الرفاهية لهذا النظام المستدّث. وفي الحقيقة فإن (كينز) كان قد اتخذ موقف بعض الاشتراكيين الغربيين، ولكنه عمل على تبريره والبرهنة عليه من زاوية الاقتصاد الرأسمالي<sup>[5]</sup>.

[1] - <http://fa.wikipedia.org>

[2] - انظر: أنطوني أربلاستر، ظهور وسقوط ليبراليسم، ترجمه إلى الفارسية: عباس مخبر، ص 455.

[3] - تقدم معنى هذه القاعدة الاقتصادية، وهي على نحو الإجمال تدعو إلى عدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، المعرّب.

[4] - انظر: حسين بشيريه، نيوليبراليسم... المنشور ضمن: اطلاعات سياسي اقتصادي، ص 9.

[5] - انظر: المصدر أعلاه.

الفصل السادس

الييمين غير الليبرالي  
في القرن العشرين

## الفصل السادس:

### اليمن غير الليبرالي في القرن العشرين

#### الحروب العالمية

هناك الكثير من الأسباب التي ذكرت لاندلاع الحرب العالمية الأولى، إلا أن هذه الأسباب أياً كانت، لم تقدم أي تصور من قبل أيٍّ من الطرفين المتنازعين عن النتائج الكارثية التي سوف تترتب على تلك الحرب.

لو ذهبنا إلى ما قاله (كلافزويتس) - الخبير الاستراتيجي الألماني البارز - من أن "الحرب هي استمرار للسياسة"، يجب القول بأن كلامه هذا كان شديد الواقعية فيما يتعلق بالحروب العالمية التي اندلعت في القرن العشرين.

إن الحروب في القرن العشرين قد تمت ديمقرتها - تبعاً للسياسة - بشكل عجيب، وهذا يعني أن انخراط بلد ما في الحرب، هو تورط للشعب بأكمله في تلك الحرب أيضاً. وهي ظاهرة يجب اعتبارها بالتحديد ظاهرة خاصة بالقرن العشرين. إن أهمية تواجد الشعوب في الحرب، قد أفضت إلى مضاعفة أهمية الأيديولوجيات السياسية، وأن تتغير الخطوط والحدود الأيديولوجية في كل حرب من الحروب صعوداً ونزولاً.

في الحروب الديمقراطية - على غرار السياسات الديمقراطية -



كان يجب العمل على شيطنة الأعداء، كي تبدو منهم صورة كريهة أو مذمومة في الحد الأدنى<sup>[1]</sup>. ونتيجة لهذه الآليات والعناصر، لم يعد من العملي فرض السلام والقرارات - التي تبرم في الخفاء بين ساسة الطرفين المتنازعين، التي سبق لها أن نجحت مراراً وتكراراً في إخماد الحروب - من خلال ذات تلك الآليات. وقد كان القتل الذريع للشعوب يتواصل بشكل منفلت لا يمكن تصوره فضلاً عن تصديقه.

المسألة الأخرى التي تعيد فرض نفسها هنا، هي مسألة "التكنولوجيا". فقد سبق لنا أن أثبتنا كيف قام (كارل ماركس) - في معرض توضيحنا لأفكاره - بإدخال الآلة في مسار الاغتراب عن الذات، بيد أنه قد لا يمكن إبراز الوجه المتحجر والمريع للتكنولوجيا كما أمكن ذلك في الحرين العالميتين. حيث كان يتم القضاء على المدنيين والنساء والشيخ والأطفال زرافات زرافات بكبسة زرّ واحدة، حتى صارت هذه المظاهر تتخذ طابعاً روتينياً وعادياً بحيث أصبح من النادر أن ترى من تثير هذه المشاهد غضبه واستياءه، وأصبحت هناك حاجة ملحّة لاستحداث مفردات جديدة من قبيل "الإبادة الجماعية" لتوصيف ما بدأ يحدث في عالم الإنسان.

لو عدنا إلى تقسيمنا السابق لرقعة الشطرنج العالمية ما بين يمين ويسار، تعين علينا القول بأن تيار "اليسار" في خضم الحرب العالمية الأولى لم يكن قد تحول بعد إلى قوة اجتماعية يحسب لها حساب بوصفها واحدة من طرفي النزاع المستعر. لقد كان اليساريون ينظرون إلى الحرب العالمية الأولى بوصفها نزاعاً بين القوى الإمبريالية

[1] - انظر: اريك هابزبام، عصر نهايتها (عصر النهايات)، ترجمه إلى الفارسية: حسن مرتضوي، ص 73.

للاستيلاء على المزيد من مصادر القوة، ويعتبرونها مجرد حرب عبثية مشؤومة وكارثية من تلك الحروب التي تقع بين الحيوانات الكاسرة. وقد عمد أكثر المتتمين إلى التيار اليساري من الشخصيات الهامة في سنوات الحرب العالمية الأولى، إلى نقد هذه الحرب الفتاكة، وأخذوا يدافعون عن الصلح والسلام. وقد اتضحت هذه النزعة بين التيارات اليسارية الروسية - ومن بينها البلاشفة - على نحو أشد، الأمر الذي شكل واحداً من الأسباب الرئيسة لإقبال الشعب الروسي - المنهك واليائس من هذه الحرب العبثية - عليهم. كما قام لينين بعد استلام السلطة في روسيا، ببذل كل ما بوسعه من أجل تخليص روسيا من شرور تلك الحرب.

بيد أن الأوضاع في الحرب العالمية الثانية قد اتخذت منحى آخر. حيث أجمع أغلب المؤرخين على أن سبب اندلاع الحرب العالمية الثانية يعود إلى ظهور قوة اجتماعية خارقة باسم "الفاشية"، حيث وضعت العلاقات العالمية وجهاً لوجه أمام مسألة مستجدة لم يسبق للعالم أن رأى مثيلاً لها.

### اليمن غير الليبرالي: التيار المحافظ والفاشية

سبق لنا أن ذكرنا أن الليبرالية كانت تعد في بداية الثورة الفرنسية من التيارات اليسارية، وفي المقابل كان أنصار النظام القديم محسوبين على التيار اليميني. بيد أن هذا التصنيف قد واجه الكثير من التحولات طوال السنوات المنصرمة، بحيث أضحت الليبرالية شيئاً فشيئاً من أهم أقطاب التيار اليميني. إلا أن أحداث القرن العشرين أثبتت ضرورة عدم الغفلة عن سائر الجماعات اليمينية أبداً؛ وهي الجماعات التي أخذت

تستعر - أثناء أفول الليبرالية في سنوات ما بين الحربين العالميتين - استعار النار تحت الرماد.

إن أهم الأيديولوجيات المدرجة ضمن هذه المجموعة، هي: التحفظ، والفاشية. فإن هاتين الأيديولوجيتين كانتا مختلفتين بل ومتعارضتين في الكثير من الجهات، إلا أن الشيء المشترك بينهما والذي جعلهما يندرجان معاً في تيار اليمين، هو حقدهما الشديد للشيوعية وروسيا وسائر التيارات اليسارية في حقل الفكر والسياسة. وفي الوقت نفسه فإن هاتين الأيديولوجيتان من جهة أخرى لم تكونا تبيان مرونة تجاه الليبرالية أيضاً.

## 1 - التيار المحافظ

إن التيار المحافظ يُعد واحداً من حقول الفكر والعمل السياسي التي كان عرضة لأنواع الحملات والانتقادات الطويلة والعريضة من قبل مختلف التيارات السياسية من الليبرالية والاشتراكية والمعتدلة والمتطرفة وغيرها. وربما كان السبب في ذلك يعود إلى أن المحافظين كانوا ينظرون إلى الكثير من أهداف وتطلعات الثورة الفرنسية - التي تم القبول بها على نطاق واسع وشامل في حقل الممارسات السياسية الحديثة - بعين الشك والريبة والإنكار. وقد كان (أدموند بيرغ) - الذي يراه الكثيرون (أصابوا أم أخطأوا) أباً للتيار المحافظ - يعد من الناحية العملية أقوى منتقد للثورة الفرنسية. يرى المحافظون في الجهود الثورية لإقامة اللجنة على الأرض كارثة ماحقة، ويسعون في المقابل إلى جعل الماضي والتقاليد والتجارب التاريخية الملموسة دعامة متينة قابلة لأن يركن إليها ويعتمد عليها. حيث تحظى عندهم الملكية،

والأسرة، والأعراف والتقاليد، والدين، والدولة، وسائر المؤسسات الإنسانية، التي تمّ الوصول إليها بعد مخاضات عسيرة من التجارب والتكامل عبر الإخفاقات الكثيرة، ذات قيمة كبيرة تستحق التقديس والاحترام. يقول مايكل أوشكات: "إن التحفظ يعني ترجيح الأمر المعلوم على الأمر المجهول، وتقديم الأمر الذي تم اختياره على الأمر الذي لم يختبر بعد، ويعني تفضيل الحقيقة على الأسطورة، والحفاظ على الأمر الموجود وعدم التفريط به من أجل الأمر المنشود، وإيثار الأمر المحدود على الأمر اللامحدود"<sup>[1]</sup>. وعليه فإن هذا التعريف يشير على نحو ضمني إلى نمط العقائد التي يؤمن بها المحافظون.

لقد كانت انتقادات المحافظين الموجهة إلى العالم الحديث مثار تأمل على الدوام. يذهب (كارل منهايم) - وهو من بين المحللين والناقدين البارزين للمحافظين - إلى الاعتقاد بأن المحافظين كانوا هم أول المخالفين للمجتمع البرجوازي، وليس الاشتراكيون<sup>[2]</sup>. يمكن تقسيم انتقادات المحافظين - تبعاً لـ (هيرشمان) - إلى ثلاثة مجموعات عامة. فهو يقول: عندما يتم تقديم طريحة للمتغيرات الجذرية لمؤسسات المجتمع، فإن أول نقیضة تصدر من قبل المحافظين تدول حول مفردة "المخاطرة". أما النقیضة التالية فتقوم على محور "الانحراف" إذ يتم تقديمها - في الغالب - بعد تراكم التجارب المريرة الناتجة عن السياسات الجديدة والفتية، وفي نهاية المطاف - وبعد فترة من الإرجاء والتأخير - يأتي دور الطريحة الثالثة

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 2، ص 174، نشر ني، طهران، 1388 هـ ش.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 176.

والأخيرة والتي تدور حول محور "العبثية"<sup>[1]</sup>.

ويمكن تلخيص وتبويب أسس وقواعد تفكير المحافظين، ضمن العناوين الآتية:

**1- إن المحافظين يشككون جداً في طبع الإنسان وإمكانية إصلاحه بمساعدة العقل.** وفي الحقيقة فإنهم في الأساس ينكرون العقلانية الفردية التي يؤمن بها التيار التنويري، ويعتقدون أن العقل الفردي أصغر وأعجز بكثير من أن يستطيع فهم جميع مسائل العالم البشري، فضلاً عن أن يتمكن من وضع الحلول لها. وفي المقابل فإنهم يقيّمون ويجلّون العقل العام الذي يفرزه التقليد أو الدين.

**2- كان هناك بين المحافظين والعقائد الدينية - على العموم - علاقة وثيقة؛ إذ كانوا ينتقدون العلمانية الآخذة في الانتشار، وأنواع التطرف لدى الثوريين الفرنسيين، ومن بعدهم الشيوعيين في الاستهانة بالدين.** وكانوا يعتقدون أن الدين يمكنه تلبية حاجات العالم الإنساني على نحو أفضل بكثير من سائر الأفكار المستحدثة الأخرى. كما لا بد أيضاً من الالتفات إلى أن العلاقة بين الدين والمحافظين لم تكن شديدة الرسوخ والثبات، حيث كان يقع الانفصال بينهما في بعض المفاصل الحساسة والهامة.

**3 - يرى المحافظون أن من بين الحقائق الملموسة والمحسوسة والطبيعية في المجتمع، هي أن الأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث القدرات والإمكانات. وعليه فإن كل سعي أو محاولة لإثبات أن الناس متساوون من الناحية الذاتية بلحاظ القابليات والإمكانات، لا يعدو أن**

[1] - انظر: ألبرت هيرشمان، خطابه ارتجاع، ترجمه إلى الفارسية: محمد مالجو، ص 153 - 157، نشر شيراز، طهران، 1383 هـ ش.

يكون مجرد وهم، وسيكون سعياً طائشاً ومن غير طائل. وعليه فإن الاختلاف وعدم التساوي يعتبر من الخصائص الطبيعية لعالم البشر، وإن كل جهد من أجل رفع هذا الاختلاف سيكون محكوماً عليه بالفشل.

4 - تعتبر "الملكية الخاصة" من بين المفاهيم المحترمة من قبل المحافظين، بل هي موضع تقديسهم أيضاً. وبذلك فإن المحافظين يتفقون مع الليبراليين في هذه النقطة، غاية ما هنالك أن الليبراليين يرون الملكية بنظريات من قبيل: "العقد الاجتماعي"، بينما المحافظون يعتبرون ذلك أمراً بديهياً وطبيعياً لا يحتاج إلى تبرير أبداً؛ وذلك لوجود عنصر الملكية في المجتمعات الإنسانية على طول التاريخ.

5 - إن التيار المحافظ - تبعاً للرؤية القائمة على سلسلة المراتب، والاتجاه الإيجابي لها نحو عدم المساواة - يميل عموماً إلى دعم نوع من الحكم الأبوي. وعلى الرغم من اقتران هذا النوع من الحكم بشكل معقد بالاقتصاد الرأسمالي والسوق الحرة، إلا أنه لم يبد مرونة تجاه النماذج الديمقراطية التي تضع زمام الأمور ومقاليدها القرارات الاجتماعية في يد عامة الناس<sup>[1]</sup>.

يمكن لنا أن نرصد مرحلتين هامتين في التاريخ الفكري للتيار المحافظ. المرحلة الأولى هي مرحلة ردود الأفعال على سياسات الثورة الفرنسية والليبرالية التقليدية، ويمكن لنا أن نعيد هذه المرحلة إلى ما قبل القرن العشرين. أما المرحلة الثانية - التي تعود إلى فترة ما بين الحربين العالميتين بالتحديد - فقد شهدت اجترار الأدلة على بطلان المنهج الليبرالي للدولة، حيث شهدت في هذه المرحلة

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 2، ص 176 - 182.

تحديات كبرى. وكما سبق أن ذكرنا فإن الليبرالية في نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الركود الكبير، كانت تعيش أسوأ مراحلها، حيث كانت الشكوك تتزايد في صوابية مدعياتها. وقد كان كل من (جوزيف شومبتر) و(ليو شتراوس) من أهم المنظرين في التيار المحافظ في هذه المرحلة الثانية من تاريخ المحافظين.

أ - جوزيف شومبتر: كان شومبتر خبيراً اقتصادياً نمساوياً، وكان في بداية أمره ليبرالياً، إلا أنه قدم بعد ذلك تفسيراً فريداً للرأسمالية أدخله في حلقة المحافظين. حيث كان يذهب إلى الاعتقاد بأن نجاح الرأسمالية سوف يقترب بانهايار جميع عناصر حيويتها وعنفوانها. وقد بحث ظهور وأفول الرأسمالية في إطار بسط الديمقراطية على الساحة السياسية. يزعم شومبتر أن الحكومة التي تختبر الإصلاحات وتدخل الدولة في الاقتصاد، تعمل بالتدرج على تخريب القيم التقليدية والبنية الاجتماعية وسلسلة الرتب الضرورية للحفاظ على الشعور العام بحبّ الوطن والتضحية والحياة الأخلاقية، وإن هذا المسار سيؤدي بالتدرج إلى الانهيار التلقائي للنظام الرأسمالي. وقد مثل لذلك بالعلاقة القائمة بين الرأسمالية العقلانية في السوق الحرة والأسرة، وأثبت أن الرأسمالية من خلال تشجيع الناس على تأخير الزواج، أو تحديد النسل وقلة الإنجاب، تعمل على إضعاف كيان الأسرة. في حين أن إضعاف هذا الكيان، يعمل في المقابل على تعريض المنظومة بأسرها إلى خطر الزوال والفاء. كما يذهب شومبتر - خلافاً لسائر الاقتصاديين الليبراليين - إلى الاعتقاد بأن الدولة يجب أن تكون حامية أو بمنزلة الوالد الذي يستطيع الحفاظ على المواطنين في المراحل العصيبة<sup>[1]</sup>.

[1] - انظر: باري ستوارت كلارك، اقتصاد سياسي تطبيقي، ص 142 - 144، ترجمه إلى الفارسية: عباس حاتمي، نشر كوبر، طهران، 1389 هـ.ش.

كانت هذه الفكرة تبدو مطلوبة لمرحلة ما بين الحربين، وشيئاً فشيئاً تبلورت رغبة المحافظين في إدارة الدولة على شكل أبوة الحكومة، و"دولة الرفاهية". وكان أهم منظر في هذه الدولة - وهو (جان مينارد كينز) - واحداً من تلاميذ (جوزيف شومبتر)<sup>[1]</sup>.

ب - ليو شتراوس: لقد كان (شتراوس) فيلسوفاً سياسياً، وقد أمضى سنوات طويلة في التدريس في جامعة شيكاغو، وخلال تدريسه لتاريخ الفلاسفة السياسيين كان يبحث عن ظاهرة أطلق عليها مصطلح "أزمة الحداثة". وكان يرى هذه الأزمة ناشئة عن التأثيرات الكارثية لتراث التنوير، من قبيل: الفردانية، والنسبية الأخلاقية، والإيمان بالتكنولوجيا. ومن هنا كان يُعدّ من أكبر الناقدين للحداثة في القرن العشرين. يذهب (شتراوس) إلى الاعتقاد بأن النسبية تمثل جوهر الحداثة وعلم الفلسفة الحديثة. وإن هذه النسبية أدت إلى الانفصال عن الأمر المطلق وسقوط العالم في ورطة العدمية<sup>[2]</sup> والنهلسية<sup>[3]</sup>. ويمكن لنا أن نشاهد هذه العدمية في التجليات المختلفة لليبرالية في الساحة السياسية إلى التاريخية والوضعية في حقل العلوم الاجتماعية. كما أنه - خلافاً لهذه الاتجاهات - باشر دراسة الفلسفة الإسلامية والفلسفة العبرية في القرون الوسطى، ومن هذه الناحية كان من المنتقدين القلائل للغرب الذين أبدوا اهتماماً خاصاً بالفلسفة الإسلامية أيضاً<sup>[4]</sup>.

[1] - انظر: طوني فيتزبريك، نظريه رفاه، ترجمه إلى الفارسية: هرمز همايون بور، ص 320 - 324، نشر گام نو، طهران، 1381 هـ ش.

[2] - انظر: باري ستوارت كلارك، اقتصاد سياسي تطبيقي، ص 144.

[3] - النهلسية (nihilism): وجهة نظر تقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه.

[4] - انظر: ليو شتراوس، جامعه شناسي فلسفه سياسي، ترجمه وتأليف: محسن رضواني، ص 16، پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامي، قم المقدسة، 1388 هـ ش.



لقد كان (شتراوس) من عتاة أنصار الفلسفة التقليدية الإغريقية بوصفها الفلسفة المعتبرة الوحيدة التي يمكنها أن ترشدنا إلى الحقيقة المطلقة، ويرى أن سقراط هو المؤسس للفلسفة السياسية. ولكننا عندما خرجنا من اليونان القديمة والعصور الوسطى، ودخلنا أعتاب العالم الحديث، قامت الحقيقة بإخفاء نفسها، أو بعبارة أخرى: أصبحت بعيدة المنال<sup>[1]</sup>. وقد رأى أن من بين أهم الأسباب لهذه الظاهرة هو التأثير السلبي للفلاسفة السياسيين في العصر الحديث على المعرفة البشرية بشأن السياسة. وفي تأثر واضح منه بـ (هيدغر) قال بأن غايته الأخيرة تكمن في التخلص والتحرر من قيود الفلسفة، واستعادة الفهم العام والطبيعي للعالم، بمعنى الفهم ما قبل الفلسفي الذي كان شائعاً في العصور الإغريقية<sup>[2]</sup>.

إلا أن هذه الفلسفة الجديدة والعلم الحديث، ليسا هما وحدهما اللذين يقفان موقف الرفض للفلسفة الحقيقية، بل إنه يرى حتى المجتمع السياسي وعامة الناس يناهضون الفلسفة والفلاسفة؛ لأن المجتمع السياسي يمتلك نظريات متنوعة بشأن السياسة، وإن هذه النظريات تكتسب من مجتمع إلى مجتمع آخر مزيداً من التعددية بالنظر إلى اختلاف تقاليدها وأعرافها. في حين أن الهدف والغاية التي تنشدها الفلسفة الصادقة، هي الوصول إلى الحقيقة المطلقة التي تتجاوز التاريخ<sup>[3]</sup>.

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 2، ص 254.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 255.

[3] - انظر: المصدر أعلاه، ص 263.

## 2 - الفاشية

لقد أمكن للآراء المحافظة أن تعيد حيويتها ما بين الحربين العالميتين من جديد، وأن تحصل على عدد من المؤيدين، إلا أنها - في الحقيقة - لم تتمكن من إثبات أهميتها كما أمكن لجماعة أخرى من اليمينيين الجدد الذين كانوا يشبهونهم في بعض تعاليمهم، ويختلفون معهم تمام الاختلاف في بعض التعاليم الأخرى. وقد تمثلت هذه الجماعة بالفاشيين. إن الفاشية - خلافاً للتيار المحافظ أو الأيديولوجيات الأخرى الهامة في القرن العشرين - لا تحتوي على مفكرين كبار. لقد كانت الفاشية حركة عملية إلى حد كبير، حيث استعرت شرارتها فجأة لتحترق، وتتحرق العالم معها.

تكمّن النقطة المحيرة في أن الفاشية قد ظهرت في قلب الحضارة الغربية المتقدمة، وفي ألمانيا وإيطاليا اللتان هما من المراكز الرئيسة للثقافة والحضارة الطليعية في الغرب. فقد كانت هناك أعرف وتقاليد فكرية متجذرة لدى كلا هذين البلدين، وكانت هناك الكثير من المراكز الثقافية والعلمية فيهما، بيد أن الظروف والشرائط في كلا البلدين قد مهدت الأرضية لظهور اتجاه عام لصالح الفاشية، من قبيل: الدولة المتآكلة، والآليات والعناصر التي لم تعد مجدية، وجمهور من المواطنين المحبطين واليائسين، والمعارضين الذين لم يعودوا يدركون من الذي يجب عليهم البقاء على التمسك به والوفاء له، والحركات الاشتراكية الموالية في ظاهرها للثورة الاجتماعية، ولكنها على المستوى العملي تفتقر إلى القدرة التي تؤهلها لإحداث أي نوع من أنواع التغيير، وبالتالي فقد أدى ذلك كله إلى جرح المشاعر القومية

لدى المواطنين بعد إبرام وثيقة السلام في فرساي<sup>[1]</sup>. إن هذه الظروف هي التي دفعت بِنُخَب المجتمع إلى الميل نحو اليمين المتطرف، وقد تحقق هذا الأمر عملياً في إيطاليا سنة 1920 - 1922 م، وبعد ذلك بعشر سنوات في ألمانيا ما بين عامي 1932 - 1933 م. لقد كان الفاشيون مثل المحافظين في عدائهم للدود لتراث التنوير والثورة الفرنسية، وكانوا يرفضون الحداثة على المستوى الرسمي، إلا أنهم مع ذلك كانوا يسيطون سيطرتهم بكامل اختيارهم على التكنولوجيا الحديثة في المسائل العلمية<sup>[2]</sup>.

لقد كانت الفاشية تشارك اليمين المحافظ في الإيمان بالقومية ومناهضة الشيوعية، ورفض الليبرالية، ولكن كان هناك اختلاف جوهري بينهما، يكمن في تمسك الفاشية بحشد الجماهير من القاعدة. فإن الفاشية على الرغم من احتقارها للديمقراطية، إنما كانت في الأساس مرتبطة بمرحلة السياسات الديمقراطية والجماهيرية. ومن هذه الناحية كانت الفاشية - مثل الشيوعية - في ذروة اقتدارها تفاخر بحشدها للجماهير، وكانت تقيم الكثير من الاستعراضات لإثبات شعبيتها وجماهيريتها<sup>[3]</sup>.

على الرغم من أن الفاشية كانت في البدء بمنزلة المذهب الفكري الذي يرمي بجميع المذاهب المنافسة في مزبلة التاريخ، إلا أنها كانت تنظر باستمرار إلى الماضي، وتسعى إلى إحياء تصوير عن المجتمع

[1] - انظر: اريك هابزبام، عصر نهايتها (عصر النهايات)، ترجمه إلى الفارسية: حسن مرتضوي، ص 164.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 154.

[3] - انظر: المصدر أعلاه، ص 152.

و"التعلق" الذي كان قائماً في مرحلة ما قبل الحداثة<sup>[1]</sup>. بيد أن هذه المسألة تحتوي على تناقض؛ إذ أن عودتهم إلى الماضي - كما هو الحال بالنسبة إلى المحافظين والتقليديين - لم يكن شاملاً، بل إن ماضيهم كان ماضياً وهمياً ومصطنعاً. لم تكن هناك نسبة بين الفاشية والدين، وكانت الفاشية تسخر من القيادة الدينية علناً، وبدلاً من ذلك كانت ترسم صورة للزعيم والفوهرر<sup>[2]</sup>، الذي هو بحسب ادعائهم يمثل مفهوماً من قبيل "الرجل الأمثل" الذي رسمه (فريدريك نيتشه)، فهو رجل فذ لا يكتسب شرعيته من دين محدد، وإنما يكتسب شرعيته من ذاته فقط.

لقد وصلت الدولة المتسرّعة لهذه الأيديولوجيا الغربية إلى نهايتها بانتهاء الحرب العالمية الثانية. ولم يقتصر الأمر على سقوط الدولتين الفاشيتين (ألمانيا وإيطاليا) بعد تكبدهما خسائر فادحة في الحرب فحسب، بل تمت محاكمة وتجريم فكرهما وأيديولوجيتهما بوصفهما المسببين الرئيسيين للحرب. وفي السنوات اللاحقة كانت تظهر من حين لآخر بعض التيارات الاجتماعية في بعض البلدان الغربية على نطاق محدود، كان يعبر عنها بمصطلحات، من قبيل: الفاشية، والفاشية الحديثة، أو النازية الجديدة، بيد أن عنوان الفاشية في المجموع قد تحول في الغالب إلى نوع من الشتيمة السياسية في قاموس المصطلحات السياسية للمجتمعات المعاصرة.

[1] - انظر: يد الله موقن، فاشيسم جيست؟ (ثلاثة أقسام)، المنشور على موقع ماه ماغ: <http://www.mahmag.org/farsi/philostudies.php? Itemid=1200>.

[2] - الزعيم أو الفوهرر (Furer): لقب اختاره أدولف هتلر لنفسه عام 1934، بل أخذ جنرالات الحرب الألمان يستخدمونه لاحقاً في الإشارة إلى هتلر. انظر على سبيل المثال: خاطرات هانس أولريخ رودل، تأليف: هانس رودل، ترجمه إلى الفارسية: ذبيح الله منصوري، نشر گلريز، طهران.

الفصل السابع

انسلاخ اليسار من جلده

## الفصل السابع

### انسلاخ اليسار من جلده

طبقاً لتوقعات (كارل ماركس) كان لا بدّ لمسار الأزمات الداخلية للرأسمالية أن تؤدي إلى انهيارها في المجتمعات الصناعية في أسرع وقت ممكن. بيد أن مسار التحولات في العقود الأولى من القرن العشرين، وإن شهدت أزمات حادة في الرأسمالية، إلا أنها لم تحمل كبير أمل للييسار. فإن الثورات الفاشلة المتعددة، والانتفاضات التي تم قمعها، والتي تهاوت تباعاً، قد ضاءلت من فرص نجاح هذا الحلم الساذج. ويمكن لنا أن نشير من بين هذه الثورات الفاشلة إلى ثورة سبارتاكوس بقيادة (روزا لوكسمبورغ)<sup>[1]</sup> سنة 1919 م في ألمانيا، والتي لم تحقق سوى الفشل الكامل، والإعدام لشخص السيدة (روزا لوكسمبورغ). بل حتى أكثر فترات الرأسمالية تأزماً، وهي فترة بداية عقد الثلاثينات من العقد العشرين، قبل أن تعمل على إثارة حماسة اليسار والماركسية، قد عملت على ظهور تيار جديد من اليمين المتطرف اسمه (الفاشية). كما أن الثورة الشيوعية الوحيدة الناجحة (في روسيا)، لم تؤد إلى تحقيق الوضع المثالي المنشود للييساريين في سائر البلدان الأوروبية. إن التنازع على السلطة بعد لينين، واقتران

[1] - روزا لوكسمبورغ (1871 - 1919 م): منظرة ماركسية وفيلسوفة واقتصادية واشتراكية ثورية من أصول بولندية يهودية، عملت بالتجارة وأصبحت مواطنة ألمانية. من كتبها (تراكم رأس المال). أسست مع ليكنخت (عصبة سبارتاكوس) عام 1919 م. وفي مطلع سنة 1919 م أي بعد شهرين من إعلان ليكنخت للجمهورية الاشتراكية الألمانية اغتيلت معه من قبل جماعة يمينية عسكرية متطرفة، وبذلك قضى على ثورتها في مهدها. المعرب.

دكتاتورية الرعب بالقمع تحت لواء حكم النقابات العمالية، أنزل ضربة قاسية على الآمال والتطلعات والأهداف الماركسية.

إن هذه الظروف والشرائط أدت ببعض المفكرين والأيديولوجيين الماركسيين إلى إعادة النظر بالرواية التقليدية لماركس، أو أنهم سعوا - على حدّ تعبيرهم - إلى تطبيقها على الظروف والشرائط المتغيرة للعالم الرأسمالي.

لقد كانت الماركسية التقليدية في أهم آرائها، وضعية. هذا في الوقت الذي كانت الوضعية في تلك المرحلة تعتبر من أهم أساليب البحث العلمي لدى التيار اليميني أيضاً. وقد كانت هذه المسألة موضع نقاش بالنسبة إلى بعض المفكرين اليساريين. فقد كان هؤلاء يسعون إلى نقد وإنكار الماركسيين التقليديين بما يرونه تحليلاً ماركسياً أصيلاً. يرى (لوسين جولدمن) أن الماركسيين التقليديين قد ترعرعوا في البيئة الاجتماعية ما بين عام 1848 إلى عام 1914 للميلاد، وفي هذه المرحلة كانت الرأسمالية هي النظام المهيمن والغالب في العالم الغربي. إن هذه البيئة الاجتماعية قد تركت تأثيرها في شرح الماركسيين التقليديين لأفكار (كارل ماركس). إلا أنهم في الحقيقة قد ذابوا بشكل وآخر في الأيديولوجية الرأسمالية، وعلى الرغم من أنهم فيما يتعلق بالجانب التنظيري لا يزالون يحيلون إلى مؤلفات (كارل ماركس)، إلا أنهم من الناحية العملية لم يكونوا يختلفون في شيء عن التيار اليميني. وقد تكررت هذه الظروف والشرائط للمرة الثانية في الماركسية الروسية بعد وصول (يوسف ستالين) إلى السلطة. حيث شهدنا ذات هذه المشكلة المتمثلة باستقرار الظروف والشرائط الاجتماعية وفقدان

الأمل بالثورة<sup>[1]</sup>. وقد كانت الماركسية الأوربية في العقد الثاني والثالث من القرن العشرين عبارة عن محاولة لتشذيب الماركسية من الوضعية، وإعادة مبادئ الديالكتيك الهيجلي إليها.

وقد ساعد على ذلك عامل آخر: ففي العقد الثالث من القرن العشرين للميلاد، تم الكشف عن كمّ كبير من المخطوطات التي كتبها (كارل ماركس) في شبابه بخط يده، وتم نشرها للمرة الأولى<sup>[2]</sup>. وقد عكست هذه المخطوطات عن ماركسية واضحة الاختلاف عن الماركسية التي فهمها الماركسيون التقليديون. ففي تلك المرحلة كان (كارل ماركس) متأثراً بفلسفة هيجل على نحو كامل، الأمر الذي يثبت - خلافاً للتصور العام - حصول تحول فكري كبير في أفكار ماركس بين ما كانت عليه في فترة شبابه، وما آلت إليه في مراحل النضج الفكري. ومن خلال هذه النظرة الجديدة حاول بعض المفكرين المولعين بماركس إنشاء ماركسية مستلهمة من ماركس الشاب، وأن تكون ذات جذور فلسفية واضحة.

كما سبق أن ذكرنا في بيان أفكار (كارل ماركس) فإن من بين مفرداته الهامة هي مفردة "الاغتراب عن الذات"، وقد اقتبسها من (هيجل). ولكي نفهم الفرق بين فهم (هيجل) وفهم (ماركس) لهذه المفردة، وكذلك ما كان يسعى إليه الماركسيون الهيجليون، ننقل حكاية روح هيجل بأوجز عبارة ممكنه، وذلك على النحو الآتي:

إن الروح قد أبدعت الطبيعة والتاريخ من تلقائها، وتجلت هي

[1] - انظر: جورج لوكاتش، تاريخ وأگاهی طبقاتي، ترجمه إلى الفارسية: محمد جعفر بوينده، ص 14، نشر تجرته، طهران، 1377.

[2] - لقد تمت ترجمة قسم من هذه المخطوطات إلى اللغة الفارسية، بعنوان (دست نوشته هاي اقتصادي-فلسفي 1844 م)، من قبل السيد حسن مرتضوي، وقد صدرت هذه الترجمة عن دار نشر آگاه.



على شكل عينية طبيعية ومؤسسات تاريخية، وبذلك فقد اتسعت في المكان والزمان واغتربت عن ذاتها. وكان هدف الروح التعرف على ذاتها للوصول إلى الإدراك الذاتي بنفسها. بيد أن الإنسان هو الوحيد من بين الظواهر الطبيعية والتاريخية الذي يمكنه الوصول إلى الماهية الروحانية غير الواعية للطبيعة والتاريخ. وعليه فإن الروح في الإنسان تصل إلى الوعي والإدراك الذاتي المنشود لها. إن على الإنسان أن يدرك العالم بوصفه روحاً مغتربة عن ذاتها. إن المعرفة الذاتية للروح تتكامل على مرّ التاريخ، وغاية هذا المسار هو وصول الروح إلى المعرفة المطلقة بذاتها<sup>[1]</sup>.

وقد عمد (كارل ماركس) إلى توظيف هذا التفلسف من قبل (هيجل) حول روح العالم واغتراب الروح بشأن العالم الاجتماعي واغتراب البروليتاريا عن ذاتها. بيد أن الماركسيين الهيجليين حاولوا أن يمزجوا أفكار ماركس بالفلسفة الواقعية مجدداً. إن من بين النتائج الأولى المترتبة على هذه المحاولة، تحول ماركس من ناقد للرأسمالية إلى ناقد للحدائثة؛ إذ أن (ماركس) في أعماله المتأخرة قد ارتضى أهداف ومعطيات العالم الحديث بشكل واضح، بيد أنه من خلال إعادة ربط هذه الأفكار بهيجل، تحوّلت منظومته الفكرية إلى نقد شامل وجامع لمختلف وجوه العالم الحديث<sup>[2]</sup>.

وكان من بين أشهر الماركسيين الهيجليين، كل من: (أنطونيو غرامشي)، و(جورج لوكاتش). كما يمكن الإشارة من بين هؤلاء إلى

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 128، نشر ني، طهران، 1388 هـ ش.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 131.

أمثال: (كارل كرش)، و(إرنست بلوخ) أيضاً.

جورج لوكاتش: يعتبر (لوكاتش) من أهم المنظرين في الماركسية الهيكلية. فقد ألف كتابه الرئيس بعنوان "تاريخ وأگاهی طبقاتي"<sup>[1]</sup> حتى قبل اكتشاف المخطوطات الاقتصادية الفلسفية لـ (كارل ماركس)، إلا أن اكتشاف هذه المخطوطات قد أيد تفسيره لأفكار ماركس.

إن الخدمة الرئيسة التي قدمها (لوكاتش) إلى النظرية الماركسية، تتمثل بمفهومين رئيسين، وهما: التشيؤ، والوعي الطبقي. أما مفهوم التشيؤ عند (لوكاتش) فهو في حقيقته تفصيل ووسط لفكرة (كارل ماركس) حول تشيؤ البضاعة. حيث كان (ماركس) يذهب إلى الاعتقاد بأن الناس في مرحلة الرأسمالية ينسون حقيقة أن البضائع هي من صنع أيديهم، وأنهم هم الذين يمنحون البضائع قيمتها. ومن هنا سوف ينظرون إلى البضائع بوصفها شيئاً خارجياً ومستقلاً عنهم. وقد عمل (لوكاتش) على تعميم هذا المفهوم وتطبيقه على جميع ظواهر المجتمع الرأسمالي، من قبيل: الدولة، والقوانين، والاقتصاد، وما إلى ذلك. وقد قال في هذا الشأن: "إن الفرد في المجتمع الرأسمالي يواجه الحقيقة التي قد صنعها بنفسه. وتكون هذه الحقيقة بالنسبة له وكأنها ظاهرة طبيعية غريبة عنه ولا علاقة له بها، حتى يتصور نفسه ألعوبة بيد قوانين هذه الواقعية بالكامل"<sup>[2]</sup>. أما المفهوم الآخر الهام بالنسبة إلى (لوكاتش) فهو الوعي الطبقي. وإن الوعي الطبقي في رؤيته ليس مجرد وعي تجريبي قائم لدى الأفراد أو الطبقات بوصفها كلاً كاملاً،

[1] - انظر: جورج لوكاتش، تاريخ وأگاهی طبقاتي، ترجمه إلى الفارسية: محمد جعفر بوينده، نشر تجرته، طهران، 1377.

[2] - انظر: جورج ريتزر، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر، ترجمه إلى الفارسية: محسن ثلاثي، ص 195، نشر علمي، طهران، 1374 هـ.ش.

بل هو الشيء الذي يمكن للطبقة أن تكونه<sup>[1]</sup>. وفي الحقيقة فإن الوعي الطبقي عبارة عن: "ردّة الفعل العقلانية المناسبة، والتي تتناغم مع الوضع الشاخص المعين في مسار الانتاج"<sup>[2]</sup>.

يعمل (لوكاتش) على تصنيف الوعي الطبقي في التضاد مع الوعي الزائف. وإن الوعي الزائف عبارة عن النوايا أو الجهود الفردية للناس من أجل بلورة المسارات التاريخية، بيد أن المسألة هنا هي أن التاريخ على الرغم من كونه مؤلفاً من هذه النوايا والأفعال الصادرة عن الأفراد، إلا أن مساراتها تنطوي على شيء من المفارقة التي لا يمكن التنبؤ بها أو السيطرة عليها. إن التاريخ من وجهة نظره عبارة عن نتيجة غير متوقعة لتلاقي ومشاركة جماعة من أفراد البشر في مسار صياغته. وبسبب هذا الإخفاق من قبل أفراد البشر في توجيه التاريخ، يكون وعيهم وعياً زائفاً. وهنا يسعى (لوكاتش) من خلال تقسيمين يقوم بهما إلى حلّ هذا السؤال القائل: كيف يمكن تحويل هذا الوعي الزائف إلى الوعي الصادق الذي هو الوعي الطبقي؟ التقسيم الأول هو التقسيم بين عالم الرأسمالية أو البرجوازية وعالم ما قبل الرأسمالية. إن الوعي الطبقي لا يمكن تحقيقه إلا في العالم الرأسمالي؛ وذلك لأن مستوى الاكتفاء الذاتي لكل فئة اجتماعية في المجتمع الإقطاعي، هي من الارتفاع - من جهة - بحيث أن الإدراك المناسب للعلاقات المتبادلة لا يمكن له أن يوجد، ومن جهة أخرى ليست هناك صياغة وتبويب للعلاقات الاقتصادية؛ إذ أن هذه العلاقات قد تعقدت ضمن الروابط

[1] - انظر: رويزن ماك دوناف، لوكاچ وايدبولوژی به مثابه آگاهی کاذب، ترجمه إلى الفارسية: شهرام برستش، مجلة أرغنون، العدد: 16، ص 277، صيف عام 1379 هـ ش.

[2] - انظر: جورج ريتزر، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر، ترجمه إلى الفارسية: محسن ثلاثي، ص 170.

الحقوقية والسياسية والأسرية وما إلى ذلك، بحيث تعاضدت فيما بينها لتبني وحدة منسجمة ومتكاملة. من هنا لا يمكن للأفراد أن يكونوا إدراكاً أبعد من محيطهم. أما في العالم الرأسمالي، فحيث الصياغة الاقتصادية المحددة والواضحة المعالم، وفصلها عن الصياغات السياسية والاجتماعية، يكون الوعي الطبقي قد بلغ نقطة بحيث يمكنه الوقوف عندها وإدراكها<sup>[1]</sup>.

أما التقسيم الثاني، فهو التقسيم بين البرجوازية والبروليتاريا. حيث يثبت (لوكاتش) أن هناك طبقتين في المجتمع الرأسمالي هما وحدهما اللتان تستطيعان إدارة وتنظيم المجتمع على أساس منافعهما الطبقيّة، وهما: البرجوازية والبروليتاريا.

يذهب (لوكاتش) إلى الاعتقاد بأن البرجوازية - بسبب التناقض الذاتي القائم في النظام الرأسمالي - لا تستطيع الوصول إلى الوعي الطبقي أيضاً. فإن الرأسمالي من جهة يرى نفسه كائناً منفصلاً في قبال البنى والقوى العامة في المجتمع، كما يرى نفسه في مساحة الاقتصاد من ناحية أخرى كائناً فاعلاً منعزلاً وفردياً. فالمجتمع لذلك يتجلى له بوصفه كلاً واحداً من جهة، كما يتجلى له بوصفه مجموعة من الأفراد المنعزلين من ناحية أخرى. وبسبب هذا الشرح الواسع، يبلغ الوعي الطبقي البرجوازي ذروته، لیبداً مرحلة السقوط ثم يتلاشى<sup>[2]</sup>. وفي المقابل ليس من الممكن للبروليتاريا فحسب، بل من الواجب والضروري أن تطلع على موقعيتها بوصفها فاعلاً جمعياً

[1] - انظر: روبرت ماك دوناف، لوكاج وايدبولوژي به مثابه آگاهي كاذب، ترجمه إلى الفارسية: شهرام برستش، مجلة أرغنون، العدد: 16، ص 274 - 176، صيف عام 1379 هـ ش.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 280.

في اتجاه القوى الحاكمة على المجتمع. إن هذا الوعي الجمعي حيث يربط - في المسار الديالكتيكي - بين النظر والعمل، ويزيل الحدود والعقبات بين الفاعل الفردي والآخرين<sup>[1]</sup>، فإنه يتحرر من ربقة الاغتراب، ولا يكتفي بتحرير نفسه فحسب، بل ويعمل على تحرير البشرية بأسرها أيضاً<sup>[2]</sup>.

لقد قدم (لوكاتش) نظرية اجتماعية معقدة، استفاد فيها من أفكار (ماكس فيبر)، و(جورج زيمل) أيضاً، بيد أن رؤيته - على كل حال - بشأن مسألة الوعي وأهميته في مسار النزاع الطبقي قد ألهمت الكثير من الماركسيين الذين جاؤوا بعده.

أنطونيو غرامشي<sup>[3]</sup>: لقد كانت السيرة الذاتية لـ (غرامشي) زاخرة بالمحن والمصائب. حتى أنه كتب الجانب الأهم من أفكاره في السجن، ومن هنا أطلق عليها اسم (دفاتر السجن). وقد استهدف الجزء الأكبر من انتقاداته ماركسية الحتمية الاقتصادية. فإن الاشتراكية - من وجهة نظره - إنما تظهر إلى الوجود بفعل الوعي الذاتي للطبقة

[1] - لكي نفهم الموقعية التي يتحدّث عنها (لوكاتش)، لا بأس بذكر مثال ساقه (لوسين جولدمن)؛ إذ يقول: حيث يكون التعاطي الذهني لدى الفرد مختلفاً عن أفعاله الخارجية، قد تكون هناك تناقضات بين أفكاره وأفعاله. لنأخذ الآن مثلاً أربعة رجال يريدون رفع سرير ونقله من النقطة (أ) إلى النقطة (ب). إنهم خلال عملية النقل يتحولون إلى فاعل واحد، لا يمكن التفكيك بين وعيه وعمله، كما يتحد في مساره العمل الفردي والعمل الجمعي معاً. انظر: جورج لوكاتش، تاريخ وأگاهی طبقاتي، ترجمه إلى الفارسية: محمد جعفر بوينده، ص 22 - 29.

[2] - انظر: روبرت ماك دوناف، لوكاچ وايدولوجي به مثابه آگاهی كاذب، ترجمه إلى الفارسية: شهرام برستش، مجلة أرغون، العدد: 16، ص 274 - 176، صيف عام 1379 هـ ش.

[3] - أنطونيو غرامشي (1891 - 1937 م): فيلسوف ومناضل ماركسي إيطالي. ولد في بلدة ألبيس بحزيرة ساردينيا الإيطالية عام 1891 م. تلقى دروسه في كلية الآداب بتورينو حيث عمل ناقداً مسرحياً عام 1916 م. انضم إلى الحزب الشيوعي الإيطالي منذ تأسيسه وأصبح عضواً في أمانة الفرع الإيطالي من الأممية الاشتراكية. أودع السجن بناء على أمر من موسوليني، حيث أمضى السنوات العشر الأخيرة من عمره - وهناك أعلن القطيعة مع ستالين، وألف كتابه (دفاتر السجن) - قبل أن يموت تحت التعذيب في السادس والعشرين من أبريل عام 1937 م.

العملية بالظروف والشرائط التي تعيش فيها وترزح تحت وطأتها. وفي هذا الخضم لا نقطع كثيراً بالانهيار الحتمي للرأسمالية وانتصار الاشتراكية على حسابها. وعلى هذا الأساس فإن هذه هي المسألة الأهم في النزاع الفعال والواعي للعمال في حقل السياسة. وقد رأى أن الطريق للوصول إلى الاشتراكية يكمن في المشاركة الديمقراطية. ولذلك فإنه كان يرفض معتقد اليساريين فيما يتعلق بالاستيلاء على السلطة، والحفاظ عليها لاحقاً من خلال "الدكتاتورية البروليتارية"، وكان يسعى إلى إدراك كيفية امتلاك المجتمع الاشتراكي لجماعة من المفكرين الذين يمكنهم الاستيلاء على السلطة، وفي الوقت نفسه يقبل جمهور الناس بهم بوصفهم قادة ومرشدين له<sup>[1]</sup>.

إن هذه الفكرة تعود إلى أمر أطلق عليه (غرامشي) مصطلح "السيطرة". والسيطرة هنا تعني القيادة الثقافية التي تفرضها الطبقة الحاكمة على الجماهير بواسطة الطبقات الوسطى<sup>[2]</sup>. وعلى هذا الأساس فقد كان يسعى إلى فهم كيفية رفع سيطرة المجتمع البرجوازي على الشعب. وفي الحقيقة فإن الجماهير - طبقاً لنظرية السيطرة - كانت بحاجة إلى أيديولوجيا من أجل المشاركة الفاعلة، ولم يكن بإمكان هذه الجماهير العمل من تلقائها لصياغة هذه الأيديولوجيا، وإن هذه المسؤولية كانت تقع على عاتق المستنيرين أو الحزب، إذ يجب على الحزب أو هؤلاء المستنيرين صياغة هذه الأيديولوجية لهم. وعلى هذا الأساس فإن طريق الثورة - من وجهة نظر (غرامشي) - لم يكن في

[1] - انظر: آوه تيم، برنده انجير رانخور، ترجمه إلى الفارسية: مازيار نائيني، مجلة چيستا، العدد: 95، ص 492 - 495، شهر بهمن من عام 1371 هـ ش.

[2] - انظر: جورج ريتزر، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر، ترجمه إلى الفارسية: محسن ثلاثي، ص 198.

انهيار البنى، بل في تغيير العقائد العامة من الأفكار البرجوازية إلى الأفكار الاشتراكية.

## عودة الرأسمالية إلى رشدها؟

في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، حدثت مجموعة من التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية الهامة في المجتمعات الرأسمالية، وقد تركت هذه الأحداث بتأثيرها على ساحة الصراع بين التيارات اليسارية واليمينية إلى حدّ كبير. وكان من بين أهم هذه التحوّلات اتساع رقعة السياسات الموسومة بدولة الرفاه، واستبدال الليبرالية التقليدية بليبرالية كينز المعدّلة. وفي الحقيقة فإن كابوس تكرار الأزمة الكبرى وخطر انهيار أسس النظام، قد دفع بالرأسمالية إلى القبول بحدود من تدخل الدولة في الاقتصاد وممارسة السياسات الضامنة للرفاه (من قبيل: الضمان الاجتماعي، والتقاعد، وما إلى ذلك). وقد عبر البعض عن هذه الاستدارة بعبارة تعريضية قال في نصها: "عودة الرأسمالية إلى رشدها".

واضح أن النتيجة الضمنية لهذه الحالة هي تجريد التيار اليساري من سلاحه. فإن توسيع سياسة الرفاهية الجديدة عملت بشكل وآخر على تحسين مستوى الحياة بالنسبة إلى الطبقة العمالية. وبذلك صار لدى البروليتاريا ما تخسره بالإضافة إلى قيودها<sup>[1]</sup>! وأخذت الشعارات البرّاقة والسلوكيات الراديكالية للتيار اليساري تفقد بريقها سريعاً في الأوساط العمالية.

وقد شرح بعض الكتاب الماركسيين - ومن بينهم: (بول باران)،

[1] - قال كارل ماركس في عبارة حماسية له: (ليس لدى البروليتاريا ما تخسره سوى قيودها).

و(بول سويزي) - لاحقاً أن تغيّر موقف الرأسمالية في الداخل، يقوم على التحول في علاقاتها الدولية. وقد ذكروا أن اتساع السياسات الرفاهية في المجتمعات الغربية يعود سببه إلى أن الرأسمالية قد عمدت إلى إبعاد الأزمة من المركز إلى الضواحي، وبعبارة أوضح: إنها نقلت الأزمة من مجتمعاتها إلى البلدان المعروفة ببلدان العالم الثالث. وفي الحقيقة فإن مسار عولمة الرأسمالية في هذه المرحلة - الذي كان قد بدأ منذ عدّة قرون - قد وصل إلى مرحلة من التنمية والانتساع، بحيث تمكن من تخصيص حصة من غاراتها العالمية للعمال في بلدان العالم الأول أيضاً. وبعبارة أخرى: إن الاستغلال الذي كان يتم بشكل رئيس في داخل الوطن (استغلال الرأسمالي للعامل)، تحول لاحقاً ليغدو استغلالاً عالمياً.

إن نقل الكثير من الصناعات الثقيلة إلى مجتمعات العالم الثالث، لم يعمل على تنعم الرأسمالية بنعمة الأيدي العاملة الرخيصة - الأمر الذي خفض من تكاليف الانتاج ورفع الأرباح - فحسب، بل أدى إلى حصول تحوّل هام في داخل المجتمعات الرأسمالية أيضاً. حيث انتقلت محورية الحياة الاقتصادية في العالم الرأسمالي من الانتاج الصناعي إلى تقديم الخدمات. إن اتساع الأنظمة البيروقراطية، والنظام التعليمي، والأنشطة التخصصية قد خلق طبقة جديدة واسعة ومؤثرة في دائرة المجتمعات الرأسمالية، يتم التعبير عنها بـ "الطبقة المتوسطة الحديثة"<sup>[1]</sup>. إن المجتمع الرأسمالي قد خرج من ثنائية الرأسمالي - العامل (التي كان ماركس مغرماً بها)، وحالت بين هاتين الطبقتين

[1] - انظر: حسين علي نوزري، پست مدرنيته وپست مدرنيسم، ص 351-352، نشر نقش جهان، طهران، 1379 هـ ش.



طبقة آخذة في الاتساع، وهي طبقة كانت مرتبطة قبل ذلك بالعلاقات والمناسبات الاجتماعية - الاقتصادية للرأسمالية كي تتمكن من أن تكون مخاطبة بالشعارات الانقلابية والثورية للييسار.

### مدرسة فرانكفورت

لقد أدت هذه الأمور مجتمعة ببعض الماركسيين - بعد أن بهت عندهم بريق الأمل الثوري - إلى الابتعاد أكثر عن الماركسية التقليدية. إن التأكيد على العناصر الثقافية بدلاً من العناصر الاقتصادية التي كانت قد بدأت من قبل الماركسيين الهيجليين، قد تجلت على نحو أوضح في تفكير أتباع مدرسة فرانكفورت (النظرية الانتقادية). لقد ابتعد الماركسيون الانتقاديون عن أسس المباني المادية لنظريات (كارل ماركس) إلى حد كبير، بيد أنهم واصلوا نقد النظام الرأسمالي بشكل أكثر جدية، ولكنه أتى إلى حد كبير في إطار نقد الثقافة البرجوازية والحداثوية المهيمنة.

لقد عمد هؤلاء إلى تسرية نقد ماركس للنظام الرأسمالي إلى نقد العلم الوضعي، والثقافة الحداثوية، والمجتمع الصناعي أيضاً. إن هذه الأفكار قد تبلورت بفعل ضعف وأفول النهضة الاشتراكية العالمية، والتفرقة داخل الحركة العمالية، وذوبان جزء من الطبقة العمالية داخل الثقافة والأيدولوجيا البرجوازية<sup>[1]</sup>. إن الفرانكفورتيين لم يعتبروا هذا الأمر مجرد نتيجة للامتيازات المادية والرفاهية التي تم إعطاؤها للطبقة العمالية. وقد بلغوا الذروة في نشاطهم عندما عمدوا - من خلال

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاریخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 165.

طرحهم لمفهوم "الصناعة الثقافية - إلى تحليل الآليات والمسارات الثقافية التي تجتذب وتدمج البروليتاريا على نحو كامل في علاقات ومناسبات المجتمع الرأسمالي لمنتصف القرن العشرين. وإن مرادهم من الصناعة الثقافية جميع الأشكال الجديدة للإنتاج الفني والتي تتصف بالخصائص الميكانيكية والإنتاج الكمي الهائل، من قبيل: الأفلام السينمائية، والموسيقى التي تستهوي العامة، والبرامج التلفزيونية. يرى أنصار مدرسة فرانكفورت - من أمثال: (أدورنو)، و(هوركهايمر) - أن الصناعة الثقافية تمثل نموذجاً واضحاً وبارزاً للمنتجات التي تجعل من المجتمع البرجوازي مجتمعاً مغترباً عن ذاته. إن محاصيل ومنتوجات الثقافة المبتدلة محاصيل مخدرة تسوق الناس إلى السقوط في هاوية الحماقة<sup>[1]</sup>. إن لب الكلام وجوهره هو أن الطبقة العمالية قد أصابها الوهم بسبب استهلاكها لمنتجات ومحاصيل الصناعة الثقافية، وتجرّدت من نزعتها الثورية بشكل كامل.

لقد قام المفكرون الانتقاديون في الطبقات الأعمق بانتقاد الفكر الإثباتي والنزعة العلمية لعصر الحداثة. إن هذا الانتقاد يرتبط بتوجهاتها العملية؛ إذ أنهم كانوا يرون النزعة الوضعية (الإثباتية) إن هي إلا اتجاه محافظ يخدم الوضع القائم. كما يرون أن كل علم ومنطق يرى في المجتمع ظاهرة ثابتة ومتضمنة لآليات خاصة جامدة، غافلاً عن الطبيعة التاريخية والحيوية للمؤسسات الاجتماعية<sup>[2]</sup>. إن مثل هذا العلم إنما يخوض في تشريح وتحليل الوضع القائم فقط، ويكون ذا صبغة آلية.

[1] - انظر: ميلنر وبراويت، در أمدي بر نظريه فرهنكي معاصر (مدخل إلى النظرية الثقافية المعاصرة)، ترجمه إلى الفارسية: جمال محمدي، ص 105 - 106، نشر ققنوس، طهران، 1385 هـ.ش.

[2] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه هاي سياسي در قرن بیستم (تاريخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 1، ص 167، نشر ني، طهران، 1388 هـ.ش.

بمعنى أن بالإمكان أن تكون أدلة لوصول كل جهة إلى مآربها، سواء أكانت من الدول الرأسمالية البرجوازية أو الأنظمة السلطوية النازية. إن العلم الوضعي لا يحتوي على أي إمكانية للتقد والذهاب إلى ما هو أبعد من الوضع القائم. إن هذا النقد الذي لم يكن غير ذي صلة بما جرى في الحرب العالمية الثانية وبعدها، قد طال (كارل ماركس) أيضاً. لقد عمد كل من (أدورنو)، و(هوركهايمر) إلى اتهام (كارل ماركس) بالقول بألية العلم، والقيام بتعميم ذلك على المجتمع أيضاً<sup>[1]</sup>. ومن هذا المقطع التاريخي عمدوا بالتدريج إلى التخلي عن (كارل ماركس). وإن كتابهما المثير للجدل الذي يحمل عنوان (ديالكتيك التنوير)<sup>[2]</sup> لم تكن له غير صلة باهتة بالماركسية.

وبطبيعة الحال فإن انتقاد أعضاء مدرسة فرانكفورت للمجتمع الرأسمالي وعناصره لم يكن ناظراً إلى البحث عن سبل للخلاص، وإنما كان يطغى عليه نوع من اليأس والإحباط الزاخر. وبعد الحرب العالمية الثانية كانوا في الغالب ينظرون إلى المجتمعات الرأسمالية بوصفها أنظمة مغلقة لا يمكن العثور فيها على منفذ للهروب، وأن كل محاولة للخلاف معها تستحيل وتحلل في داخلها، حيث أضحت جميع أشكال الارتباط المنفرد قائمة من طرف واحد فقط. وفي هذا المعتك كان (هربرت ماركوزه) هو الاستثناء الوحيد في المدرسة الفرانكفورتية. إذ أنه على الرغم من إذعانه بعدم انتقال البروليتاريا إلى المرحلة الثورية، عقد الأمل على ظهور قوى جديدة تحمل على عاتقها

[1] - انظر: يان كرايب، نظريته الاجتماعي مدرن (النظرية الاجتماعية الحديثة)، ترجمه إلى الفارسية: عباس مخبر، ص 272، نشر آگه، طهران، 1388 هـ ش.

[2] - قام بترجمة هذا الكتاب إلى الفارسية: مراد فرهادپور وأמיד مهرگان.

أعباء الثورة الاشتراكية. وقد تمثلت هذه القوى المنشودة لـ (ماركوزة) بالأقليات العرقية والقومية، والمهمشين، والعاطلين عن العمل، ولا سيما الطلاب الجامعيين. وفي عام 1968 م كان هذا الأمل الأخير لثورة اليسار قد نال فرصته لاختبار حظه في هذا المجال أيضاً.

### الانتفاضة الطلابية لعام 1968 م

لقد شهدت السنوات الأخيرة من عقد الستينات من القرن العشرين للميلاد موجة من الاعتراضات الطلابية التي تركت بظلالها وتأثيرها على المجتمعات الرأسمالية. إن هذه الاعتراضات كانت تشمل طيفاً واسعاً من المطالب والإرادات، حيث تبدأ من الاعتراض على الظروف والقواعد التعليمية والأكاديمية إلى الاعتراض على العنصرية والتمييز العرقي والطبقي والاعتراض على حرب فيتنام، والوحشية الرأسمالية، وحتى المطالب الراديكالية والفوضوية.

وقد بلغت هذه الاعتراضات ذروتها في شهر أيار من عام 1968 م في باريس. لقد بدأت "نهضة أيار عام 68" في أول الأمر على شكل اعتراضات نقابية وتعليمية وجامعية وكليات التعليم العالي، ولكنها اتخذت لاحقاً طابع الثورة العارمة. حيث أدى عنف السلطة في قمع هذه الحركات وإلقاء القبض على عدد من الطلاب في الموجة الأولى إلى مفاقمة الأمور وتأزيمها ليزداد لهيب الثورة اشتعالاً؛ إذ بادر الطلاب اليساريين إلى احتلال الجامعات، وغلق الشوارع بالمباريس استعداداً لمواجهة الشرطة. وقد التحقت بهم عدة نقابات عمالية وأعلنت إضرابها عن العمل. وبدا أن النظام اليمني لـ (شارل ديغول) يواجه أسوأ أزمة في تاريخه.

لقد كانت المطالب والشعارات الطلابية في انتفاضة أيار لافتة للانتباه جداً. وفي الحقيقة فإن زوال النظام الرأسمالي كان يمثل أسّ مطالبهم، وكان يعد من أبسط شعاراتهم! فلم يقتصروا في هجومهم على النظام الاقتصادي - السياسي للرأسمالية، بل شمل جميع عناصر الثقافة والحياة البرجوازية أيضاً، فكانوا يرتدون - على سبيل المثال - ثياباً مهلهلة ومخرّمة الحواشي، للتعبير عن اعتراضهم على الثقافة الاستهلاكية التي اتسمت بها آداب الحياة البرجوازية<sup>[1]</sup>! كما كان الطلاب يطلقون بعض الشعارات الغريبة والراديكالية، من قبيل: "فلتسقط الثقافة!" و"أحظروا الحظر!" و"اطلبوا المستحيل!" وما إلى ذلك. في حين أن مطالب النقابات العمالية كانت تؤكد على إصلاح الأجور وبعض الامتيازات الرفاهية فقط.

وبالتالي فإن الدولة عملت في نهاية المطاف على استثمار هذا الشرخ لإنهاء ربيع هذه الانتفاضة؛ حيث دخلت من جهة في مفاوضات مع النقابات العمالية، وقطعت لهم وعداً بتحسين ظروفهم الرفاهية وزيادة أجورهم. ومن جهة أخرى عملت على إثارة المشاعر والحماسة الوطنية، وقامت بتحريك القطاعات العسكرية لقمع الطلاب. وبذلك تم القضاء على انتفاضة الطلاب في أيار عام 1968 م، من خلال قمعها بواسطة الجيش.

لقد ذهب الكثير من المحللين إلى اعتبار انتفاضة أيار عام 1968م الفاشلة نموذجاً بارزاً لنهاية مرحلة من السياسة في الغرب، والانتقال

[1] - والملفت في البين أن الهزيمة المذهلة للرأسمالية قد استوعبت هذه الحركة الاعتراضية وعملت على توظيفها واستثمارها ضمن منظومتها الربحية، حيث جعلت من هذا النوع من الثياب المهترئة موضة درت على شركاتها المنتجة للثياب أرباحاً طائلة.

إلى مرحلة جديدة. ومن أهم خصائص هذه المرحلة الجديدة حذف اليسار (بمعناه الأصيل) من الساحة السياسية، واستبداله بنوع من التيار الهامشي المتمثل بالتنوير الفكري من جهة، وإدغام الأحزاب اليسارية في الأنشطة السياسية للأنظمة الليبرالية الرأسمالية.

## الفصل الثامن

نهاية الأيديولوجيا؟

## الفصل الثامن

### نهاية الأيديولوجيا؟

لقد أشار (السدير ماكتتاير)<sup>[1]</sup> - الماركسي الذي تخلى عن الماركسية، ليعتنق المسيحية لاحقاً - إلى أن الماركسيين كلما تمتعوا بالسلطة السياسية، مارسوا نموذجاً من الحكم يشبه في ذاته طريقة إدارة الحكم في دول القطب المخالف لها<sup>[2]</sup>. وقد تجلّى هذا الشبه على أفضل وجه في العقود الخمسة من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى انهيار الاتحاد السوفيتي. لقد انتهت الحرب العالمية الثانية دون إبرام أيّ عقد للسلام؛ إذ أن الدولة التي خسرت الحرب - ونعني بذلك ألمانيا - قد انهارت تماماً، وتم احتلالها بشكل كامل. وبذلك لم يكن هناك بعد نهاية الحرب طرفاً في قبال دول التحالف، لتكون هذه الدول مضطرة إلى إبرام عقد السلام معه. وفي الأيام الأخيرة من الحرب التقى الجيش الروسي الأحمر وجيوش التحالف الأمريكي والإنجليزي في برلين، وكان نصف المدينة تحت الاحتلال الروسي، والنصف الآخر تحت احتلال الحليف الآخر. وقد عمد الحلفاء بعد عقد عدّة جولات من التفاوض فيما بينهم إلى اتخاذ القرارات الحاسمة بشأن أوضاع

[1] - السدير ماكتتاير (1929 - ؟ م): فيلسوف وعالم أخلاق إسكتلندي، له إسهامات في فلسفة الأخلاق والفلسفة السياسية، وله العديد من الأعمال في تاريخ الفلسفة واللاهوت.

[2] - انظر: السدير ماكتتاير، در بي فضيلت (في أثر الفضيلة)، ترجمه إلى الفارسية: حميد شهرياري ومحمد علي شمالي، ص 198، نشر سمت، طهران، 1390 هـ ش.



العالم، وقاموا بتقسيم أوروبا فيما بينهم. وبذلك بدأت ملامح ظهور القطبين والقوتين العظميين في العالم بشكل تدريجي بعد تبلور الماردین الروسي والأمريكي على الساحة السياسية في العالم.

ومنذ ذلك الحين شهد العالم مرحلة هادئة ولكنها في الوقت نفسه مصحوبة بنوع من التشويش والقلق. حيث امتلكت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية في أواخر الحرب العالمية الثانية، واستخدمتها مباشرة بإلقاء قنبلتين منها على مدينتي هيروشيما وناكازاكي اليابانيتين. وكان حجم الكارثة قاصماً للظهر. وبعد سنوات قليلة من ذلك توصل الروس إلى امتلاك هذا السلاح الفتاك أيضاً. ومنذ عام 1953 للميلاد إلى العقود الأربعة اللاحقة كان العالم في كل لحظة يعيش على شفير اندلاع حرب ذرية، يقدّر لها ببساطة أن تكون نوعاً من "الانتحار العالمي لجميع أفراد البشر". ويطلق على هذه الفترة مصطلح الحرب الباردة؛ إذ على الرغم من عدم احتدام حرب حقيقية بين القطبين العظميين على المستوى العملي، إلا أن سباق التسلح ونتاج أسلحة الدمار الشامل كان قائماً بين القطبين (اليسار واليمين) على قدم وساق. كما كانت الحرب المعلوماتية والاستخباراتية والتكنولوجية تسير على نفقات باهضة وجنونية. وكان المؤرخون من أمثال (هايزبام) يعتقدون بأن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي كانا على يقين من عدم اندلاع حرب شاملة، الأمر الذي كان يساعد على مواصلة النزاع الأيديولوجي والاستخباري اللامتناهي بين هذين القطبين.

ولكن من الجدير أن نسأل: كيف يمكن لنا أن نحلل وندرس مرحلة

الحرب الباردة في نقاشنا المحوري في هذا الكتاب، والمتمثل في  
الجدل القائم بين اليسار واليمين؟

كما سبق أن ذكرنا فإن المظاهر العالمية لليسار واليمين في هذه  
المرحلة كانت شديدة الشبه ببعضها في كل من (الولايات المتحدة  
الأمريكية والاتحاد السوفيتي)، ولم يخف ذلك عن أنظار المستنيرين  
والمفكرين في تلك المرحلة. وقد أوصلت الحرب العالمية الثانية  
- بكل أبعادها الكارثية - الكثير من المفكرين إلى نتيجة مفادها أن  
الحضارة الغربية قد بلغت نهايتها. وكان هناك العديد من المدارس  
والمذاهب الفكرية التي أخذت بالظهور التدريجي تبحث عن سبيل  
جديد بعيداً عن الاستقطاب الرسمي لليمين واليسار. وبدأت الشكوك  
العجدة والكثيرة بشأن أهداف التنوير التي كانت على رأس الحضارة  
الغربية على مدى أربعة عقود من الزمن تبدأ بالظهور إلى السطح،  
وأخذت الانتقادات تستهدف جوهر الحداثة أكثر من ذي قبل. وعلى  
الرغم من ذلك كانت السياسات الرسمية للمجتمعات الرأسمالية  
في الساحة السياسية، وظهور نوع من التناغم والوفاق العام حول  
تركيبة اقتصاد السوق، والتدخلات الحكومية المحددة، والديمقراطية  
الليبرالية الحزبية ملحوظة ومشهودة على نحو واضح.

### الجذب والاندماج، نهاية اليسار بعد عام 1968 م

تقدم أن أشرنا بشكل عابر إلى نهاية حركة أيار عام 1968 م بوصفها  
آخر ظهور جاد لتيار اليسار الراديكالي على الساحة السياسية. إن من

بين الأمور الملفتة في مرحلة اشتعال فتيل الحركة الاعتراضية، نجدتها في مواقف الأحزاب اليسارية الاشتراكية والشيوعية. فإن هذه الأحزاب بدلاً من الدخول عملياً في الحركة الثورية الطلابية ورفع شعاراتها، اكتفت بتحيين الفرص واستثمار هذه الحركة كورقة لها في التنافس الانتخابي. ولذلك بعد أن أخفقت هذه الحركة الطلابية، ظهرت موجة من الاعتراضات التي تحمّل قادة الأحزاب اليسارية نتيجة الفشل، متهمه إياها بالتخاذل والمهادنة وسلوك منح التحفظ، حيث أصبح قادة الأحزاب اليسارية جزءاً من المنظومة الحاكمة!

لقد كان هذا المورد صورة للشرائط العامة التي سادت النصف الثاني من القرن العشرين لتيار اليسار السياسي. في هذه الحقبة من الزمن أمكن لليسار أن يسجل حضوره الرسمي في الساحة السياسية للمجتمعات الرأسمالية من خلال الأحزاب الاشتراكية والشيوعية. إلا أن هذا الحضور كان باهظ الثمن؛ إذ لا سبيل إلى الدخول في المنظومة الحاكمة سوى أن تكون جزءاً منها.

إن تاريخ ما يقرب من قرن من الجهود الفاشلة لإسقاط الرأسمالية، مضافاً إلى الإبهامات والاختلافات النظرية والاستراتيجية، وكذلك المجتمع البرجوازي - الرأسمالي، قد قضى على كل بارقة أمل في إحداث الثورة والتغيير الجذري. ومن هنا أدرك اليساريون أن عليهم القبول بالنظام الرأسمالي بوصفه أمراً واقعاً لا يقبل الزوال - بحسب الظاهر - وأن عليهم التأقلم في إطاره. ومعنى هذا التأقلم تقريباً هو أن اليساريين لم يعد بإمكانهم سوى الاضطرار إلى التخلي عن اليسار!

ومنذ ذلك الحين انتقل اليسار عملاً من المعنى المعهود له في صلب الأحداث السياسية، ليقم في هامش دائرة التنوير الفكري. وأما الأحزاب السياسية التي كانت تعد ضمن قائمة اليسار، لم تكن من الناحية العملية لتختلف كثيراً عن اليمين المعتدل. وقد بلغ الأمر حداً تداول فيه الحديث في بداية عقد السبعينات من القرن العشرين عن انتهاء الأيديولوجيا اليسارية<sup>[1]</sup>. وإن سلسلة الأبحاث الأيديولوجية التي كانت قد بدأت منذ القرن التاسع عشر للميلاد في العالم الحديث، قد انتهت بتوافق عام حول مطلوبة الرأسمالية ودولة الرفاه والديمقراطية الحزبية.

### تجديد قوى اليمين: الليبرالية الحديثة

على الرغم مما تقدم، فقد أظهرت الموجة الجديدة على الساحة السياسة الأوروبية في بداية عقد الثمانينات من القرن العشرين للميلاد أن الأحداث لم تبلغ مرحلتها الأخيرة بعد، وأن الحصيلة المذكورة كانت متسرعة. إلا أن هذه الموجة الجديدة - بطبيعة الحال - لم تنبثق من ناحية اليسار، وإنما انطلقت من أقصى اليمين. وكانت بداية هذا التحول قد برزت من خلال انتصار حزب المحافظين الإنجليز بقيادة (مارغريت تاتشر). وقد أكدت السيدة (تاتشر) كما أكد (رونالد ريغن) في الولايات المتحدة الأمريكية على ضرورة خفض النفقات الحكومية بغية تحسين وتطوير الوضع الاقتصادي. ومن الواضح أن هذا الأمر كان يعني تقليص الضرائب على الصناعات والشركات الكبرى وكذلك تحديد المشاريع والامتيازات الرفاهية. لقد تلقى تراث دولة الرفاه بعد

[1] - انظر: حسين كجويان، يابان ايدولوجي، نشر كيهان، طهران، 1376 هـ ش.

الحرب العالمية ضربات ماحقة. وكان يبدو أن الروح قد عادت إلى الرأسمالية والليبرالية الأولى. ويمكن اعتبار التيار المذكور - الذي يعبر عنه بالليبرالية الحديثة - هو التيار الحاكم على سياسة المجتمعات الرأسمالية حتى الآن (ولا سيما ما قبل أزمة 2008 م).

ومن بين المفكرين هناك شخصيتان يمكن عدّهما من الممهدين الرئيسيين لتيار الليبرالية الحديثة، وفيما يلي نشير إليهما باختصار.

1 - هايك: لقد كان فريدريش أوغوست فون هايك (1899 - 1992 م) عالم اقتصاد وفيلسوف سياسي نمساوي، وكان يعد من كبار المفكرين الليبراليين في القرن العشرين. وهو من الاقتصاديين القلائل الذين لم يرحبوا أو يتفاعلوا مع دول الرفاه حتى في ذروة شعبيتها وإقبال الناس عليها، وظل وفياً لفكرة السوق الحر. لقد كان (فريدريش فون هايك) - تبعاً لـ (كانت) - يرى أننا لا نستطيع إدراك الظواهر والأمور كما هي. وبعبارة أخرى: كان هايك يعتقد "أن العلم الذي يمتلكه الأفراد في المجتمعات الحديثة هو علم ناقص بالضرورة، ولا يمكن أن يكون كاملاً في أيما وقت من الأوقات"<sup>[1]</sup>. ومن هذه الزاوية كان فيما يتعلق بإمكان التحول في عموم المجتمع، يذهب إلى الاعتقاد بأن النظم إذا ساد المجتمع فإنه لن يكون حصيلاً التخطيط العقلاني، وإنما هو نظم تلقائي يحصل من خلال التجارب واختبار الخطأ والعمل على تصويبه، بيد أننا لن نحيط بجميع جوانبه أبداً. وهنا

[1] - Edward Feser, The Cambridge Companion to Hayek, UK: Cambridge University Press, 2006, P 111.

يقدم لنا (جون هايك) نظرية "النظم التلقائي" في قبال نظرية "الهدفية والنظم التاريخي". يذهب (جون هايك) إلى القول بأن النظريات التي ترى أن الحضارة حصيللة التخطيط والتنظير، إنما تقوم على التصور الخاطيء القائل بأن عقل الإنسان مستقل عن المجتمع.

كما أنه يتحدّث عن النظم التلقائي في النظام الاقتصادي والسوق تحت عنوان "الاقتصاد المنظم تلقائياً" أيضاً. إن الاقتصاد المنظم تلقائياً هو نوع خاص من النظم الذي تبلور بسبب مشابهته للكثير من الأساليب الفردية في النشاط الاقتصادي القائم على السوق والملكية والمكافآت والعقوبات والعقود والمواثيق. في الاقتصاد المنظم تلقائياً "يؤدي تتبع المصالح والمنافع إلى ضمان الخير العام، ولا يمكن لأي منظمة أو مؤسسة مصطنعة أن تحل محل هذا الأسلوب الاقتصادي من حيث الكفاءة والحياد"<sup>[1]</sup>. وعلى هذا الأساس فإنه يخالف تدخل الدولة في مصير أفراد المجتمع بشدة. ومن وجهة نظره لا يمكن التنظير مسبقاً بشأن مسار السوق، واعتباره عادلاً أو غير عادل؛ إذ لا يستطيع أحد أن يتكهن بما سيحدث في هذا السوق. إنه - بطبيعة الحال - يؤمن بأن الآلية الراهنة للسوق آلية ظالمة، ولكنه لا يرى سبب ذلك عائداً إلى السوق نفسه، وإنما يعود من وجهة نظره إلى الدعم أو الحرمان الذي يفرض على الأفراد. لا يمكن لأي برنامج منظم أن يحل محل النظم التلقائي والذاتي للسوق. ويرى (جون هايك) أن استحالة الاشتراكية لا تعود إلى أسباب اجتماعية أو سياسية، وإنما إلى أسباب معرفية.

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه هاي سياسي در قرن بیستم (تاريخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 2، ص 86، نشر ني، طهران، 1388 هـ ش.

"بمعنى أنه لا يمكن لأي نظام اجتماعي - قد آل نظام السوق فيه إلى الانهيار - أن يتفجع بشكل مؤثر بالمعرفة العملية والمشتتة لمواطنيه"<sup>[1]</sup>. كما يذهب (هايك) إلى الاعتقاد بأن الحياة الأخلاقية تابعة للنظم والتكامل التلقائي أيضاً. ومن وجهة نظره فإن الأصل الأخلاقي الوحيد الذي يجعل من ازدهار الحضارة أمراً ممكناً هو أصل الحرية الفردية. وفي الحقيقة فإن الناس قد سلكوا بحريتهم الذاتية طرقاً، واكتسبوا تجارب، وأقاموا نظاماً أخلاقياً على أساسها. ومن هنا فإنه لم يكن شديد التعاطف مع الديمقراطية، ويرى أن الديمقراطيات الراهنة والقائمة على الأغلبية تعتبر رأي الأكثرية قانوناً، في حين يتعين على الدولة ذاتها أن تتبع قانوناً أصيلاً يحقق العدالة ويضمن حدود الحرية للفرد، والقدرة للدولة<sup>[2]</sup>. وكان (جون هايك) يرى الخطر الأهم يأتي من قبل مفهوم العدالة الاجتماعية. يجب على دولة القانون في تعاملها المتكافئ مع الأفراد، أن تنظر إليهم بوصفهم كائنات ومصاديق مجهولة وغير معينة، وأن تتجاهل عدم تكافئهم في امتلاك الإمكانيات والقابليات. إن السعي إلى إقامة المساواة وإلغاء هذا النوع من الفروق وانعدام التكافؤ الأولي، يؤدي في حد ذاته إلى سلوك مختلف تجاه الأفراد<sup>[3]</sup>.

2 - كارل بوبر: يعتبر كارل ريموند بوبر من أشهر الفلاسفة السياسيين الليبراليين في القرن العشرين للميلاد. وعلى الرغم من اشتهاه بوبر - بشكل رئيس - في فلسفة العلم، إلا أنه أحدث تحولاً

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 87.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 91.

[3] - انظر: المصدر أعلاه، ص 92.

جذرياً وأساسياً من خلال طرحه المجدد للسؤال الرئيس في الفلسفة السياسية. لقد كان سؤال الفلسفة الرئيس حتى ما قبل (بوبر) يقول: "من هو الأنسب للحكم؟". يرى بوبر أن كل جواب عن هذا السؤال هو في الأساس جواب سلطوي. فإن المسألة الرئيسة - من وجهة نظره - تقول: "كيف يمكن بناء المؤسسات السياسية بحيث لا يتمكن حتى الحكام الفاسدون من إلحاق الضرر بالمجتمع؟"<sup>[1]</sup>.

إن إجابة (بوبر) عن هذا السؤال، تمثل الجانب الأهم من نظريته السياسية. يمكن القول بعبارة مبسطة تنطوي على شيء من التسامح: إن نظرية بوبر تقول بأن ضمان الحرية في المجتمع، والحفاظ على هذه الحرية في مواجهة الاستبداد والعنف، يتوقف على التخلي عن الأيديولوجية الثورية.

إن الأيديولوجية الثورية تشتمل من وجهة نظر (بوبر) على خصوصيتين رئيسيتين، وهما:

1 - تأصيل التاريخ، فهو يعرف أصالة التاريخ على النحو الآتي: "رؤية إلى العلوم الاجتماعية تسلّم بأن النبوءة التاريخية هي الهدف الرئيس من تلك العلوم، وتفترض بأن الهدف المذكور إنما يحصل من خلال اكتشاف التناغمات أو النماذج والقوانين أو المسارات التي تمثل ركائز المسار التكاملي للتاريخ"<sup>[2]</sup>.

2 - الخصوصية الأخرى تأصيل الكل. تذهب أصالة الكل إلى

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 78.

[2] - انظر: جان غراي، آزادي خواهي بوبر، ترجمه إلى الفارسية: عزت الله فولادوند، ص 188، نشر طرح نو، طهران، 1377 هـ ش.



الاعتقاد بأن الأحداث البشرية جزء من كل اجتماعي، ويجب إدراكها وفهمها من خلال النسبة والتناسب القائم بينها. وقد ذهب (بوبر) إلى القول بأن النزعة الكلية هي نزعة يوطوبية أو من قبيل المدينة الفاضلة. كان (كارل بوبر) يرى "أن أهم الأسباب النفسية والاجتماعية للدكتاتورية، تكمن في هروب الجماهير من رهاب الحرية، والمسؤولية غير المطلوبة، ورغبتهم في الحصول على الأمن"<sup>[1]</sup>. لقد زالت (الأصالة) بوصفها عامل اطمئنان في المجتمع الحديث، وإن الأساليب المختلفة القائمة لنقد وتقييم المسائل كانت تؤدي إلى المزيد من التشويش والمخاوف والقلق. ومنذ القدم كانت جذور الانحياز إلى المجتمع المغلق - الذي ظهر في قبال الميل إلى الحرية والانتقاد - يمثل ذات هذا النوع من الشعور بالخطر في مواجهة المسائل المستجدة. يرى (بوبر) أن كل نوع من أنواع الانقطاع عن الزمن الراهن - سواء على شكل تمني العودة إلى الماضي، أو على شكل تحقيق المدينة الفاضلة والتي تعني تعلق الأنظار إلى مستقبل غير معلوم - بحثاً عن الأمن، يقضي على التفكير الحر، ويميل إلى العنف. يشن (بوبر) هجوماً عنيفاً على (هيجل) بوصفه أبو الدكتاتورية، ويرى أن جميع المفاهيم الرئيسة للدكتاتورية قد تسلمت من (هيجل) إلى سائر المفكرين المناهضين للديمقراطية، من دعاة: القومية بمعناها العنصري، وتقديس الدولة والحرب، وتبرئة الدولة من المسؤولية الأخلاقية، واتحاد القمع والحق،

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه هاي سياسي در قرن بیستم (تاريخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 2، ص 65.

وامتداح الزعماء وشخصيات العالم - التاريخي<sup>[1]</sup>.

كما كانت الماركسية من وجهة نظره "تمثل الشكل الأكثر خلوصاً والأكمل والأشد خطراً من أشكال أصالة التاريخ". وعلى هذا الأساس يعتبر (كارل ماركس) من وجهة نظر (بوبر) - لهذا الدليل الواضح - قد فشل في أطروحته، حيث يتصور أن كل ما يحدث في التاريخ مرة واحدة، سوف يتكرر بشكل متواصل. وبطبيعة الحال فإنه يذهب في نقده إلى أبعد من ذلك، حتى يصل إلى نتيجة مفادها أن الأيديولوجيات الثورية - بشكل عام - تؤمن بأصالة التاريخ، كما أنها تنتهج الدكتاتورية في الوقت نفسه، وحيث أنها ترى أن التاريخ يسير على طبق خطة مرسومة، فإنها تصور لذلك غاية أو يوطوبيا أيضاً. من هنا فإن "أعمال الإنسان بشكل عام، والأعمال السياسية بشكل خاص، تترتب عليها آثار خارجة عن نوايا فاعلها"<sup>[2]</sup>. بيد أنه في الوقت نفسه يبدي مرونة تجاه بعض النواحي الخاصة من الماركسية أيضاً، حيث يقول: "إن هذه الراديكالية لماركس هي التي تبرّر نفوذه وتأثيره، وهذه المسألة بدورها تدعو إلى التفاوض. إن هذه الراديكالية الأخلاقية لا تزال حية، وإن من الواجب علينا أن نحافظ على بقائها حية، وأن نحول دون سلوك طريق يطيح براديكالياتها السياسية. إن الماركسية العلمية قد ماتت، بيد أن الشعور بالمسؤولية الاجتماعية والتعلق بالحرية يجب أن يبقى حياً"<sup>[3]</sup>.

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 67.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 73.

[3] - Karl Raymond Popper, Open Society and Its Enemies, Fifth Edition, PDF version, 1966, P. 407.

وفي قبال التغيير الثوري كان (بوبر) يعتقد بالتغيير الإصلاحى أو الهندسة الاجتماعية التدريجية. حيث يرى (بوبر) أن الأسلوب الأمثل لبناء المجتمع الأفضل هو الحل التدريجى للمشاكل التى يعانى منها ذلك المجتمع. وفي هذا الشأن يذهب (بوبر) إلى الاعتقاد بأن النظم الاجتماعى لم يتمكن فى أى حقبة تاريخية من توفير السعادة بشكل كامل. فقد شهدت جميع المجتمعات مظاهر من انعدام العدل والقمع والفقر والضياع. ولم تشذ عن ذلك حتى الديمقراطيات الغربية، وإن كانت هذه الأمور تحدث فيها على نحو أقل بالمقارنة إلى غيرها من المجتمعات. وعلى كل حال يجب حتى على الحكومات فى هذه المجتمعات أن تسعى إلى تحسين واقعها أكثر فأكثر، إلا أن هذه المسألة تختلف تماماً عن الأمل بإقامة مجتمع كامل على وجه الأرض؛ إذ أن "جميع الجهود المبذولة فى إطار إقامة جنة الله على الأرض، قد انتهت على الدوام بتحويل هذه الأرض إلى جحيم"<sup>[1]</sup>.

## انهيار الشيوعية

لقد خرج الروس من الحرب العالمية الثانية مرفوعى الرأس. فقد كانوا أسرع وأكثر صراحة فى اتخاذ المواقف المناهضة للفاشية بالقياس إلى الدول الليبرالية فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الرغم من التضحيات الجسام والخسائر التى تكبدوها فى الحرب، كان هذا الجيش الأحمر فى نهاية المطاف هو الذى دحر

[1] - انظر: فرانتس شتارك، انقلاب يا اصلاح، ترجمه إلى الفارسية: هـ. وزيرى، ص 6، نشر خوارزمي، ط 4، طهران، 1380 هـ ش.

الجيش الألماني<sup>[1]</sup>.

وإذا تجاوزنا هذا الأمر، فقد شهدت السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية - كما سبق أن ذكرنا - انعدام الثقة من قبل الكثير من الناس بالنموذج الليبرالي بوصفه نظاماً صالحاً للحكم. وقد عمل الركود الكبير وعدم جدوائية الدولة على تأكيد هذا التصور. ومن هنا كانت جميع الظروف والأجواء بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية معدة للاتجاه نحو اليسار بشكل منطقي<sup>[2]</sup>. وهكذا كان الأمر على الصعيد العملي؛ فقد انتصر حزب العمال في إنجلترا على تشرشل، وبشكل عام حيثما أقيمت الانتخابات في أي بلد أوروبي كانت كفة اليسار هي الراجحة على نحو ملحوظ. والمسألة الأهم هي أنه بعد اندحار الفاشية، كان المصدر الوحيد الذي أمكن على أساسه نقد الديمقراطية البرجوازية هي الشيوعية<sup>[3]</sup>.

وكان الذي يضاعف من أهمية هذه الأجواء انتقادات المنظرين الناقدين - ولا سيما (ماركوزه) - الذي كان يساوي بين ظروف الولايات المتحدة الأمريكية في عقد الستينات وبين ألمانيا في عقد الثلاثينات. لقد كان (ماركوزه) يعتقد بوجود فاشية كامنة في صلب الديمقراطية الأمريكية، وأن هذه الفاشية ستؤدي إلى ظهور دولة مقتدرة من رحم

[1] - انظر: كريغ موران، اندیشه کمونیسم در قرن کوتاه بیستم، ترجمه إلى الفارسية: عزت الله فولادوند، المنشور في (فلسفه وجامعه وسياست)، تلخیص وتالیف وترجمة: عزت الله فولادوند، ص 278، نشر ماهي، طهران، 1386 هـ ش.

[2] - انظر: المصدر أعلاه، ص 274.

[3] - انظر: المصدر أعلاه، ص 280.

الليبرالية الموجودة في هذا البلد<sup>[1]</sup>.

وعلى الرغم من ذلك كله، كان هناك نوع من اعدام الثقة بما يجري في روسيا. وبعد الفضائح التي حدثت في عهد (يوسف ستالين)<sup>[2]</sup>، ذهب عدد من المنظرين - ومن بين أهمهم (حنة آرنت)<sup>[3]</sup> - إلى القول بإمكانية العثور على الكثير من أوجه الشبه بين الفاشية والشيوعية الاستالينية. وقد كان مصطلح السلطوية هو المصطلح الذي أطلقتها (حنة آرنت) على كلا الموردين.

وعلى كل حال فإن الشيوعية - بالنظر إلى التجربة الروسية - أخذت تفقد تفوقها الأخلاقي بالتدريج. ومن ناحية أخرى فإن الإعلام الأمريكي المتواصل طوال سنوات الحرب الباردة قد صورّ المعسكر الشيوعي وكأنه عدو يمكنه في كل لحظة أن ينقضّ على العالم الحرّ بقنابله الذرية.

وبطبيعة الحال فإن هذا الأمر إنما كان يمثل مجرد جانب من القضية فقط. أما الجانب الآخر فهو يتمثل بالمشاكل الداخلية للمنظومة الحكومية للاتحاد السوفيتي. فإن اقتصاد الاتحاد السوفيتي

[1] - انظر: المصدر أعلاه.

[2] - وفي هذا الشأن تحظى الفضائح التي كشف عنها (خروشيف) عام 1956 م - ولا سيما نشره لكتاب ألكساندر سولج نيتسين، ومجمع الجزائر، وغولاغ - بأهمية كبيرة، بحيث قال (بول بيرمن) في هذا الشأن: قد لا نعثر في عموم تاريخ الأدب على كتاب مثل الترجمة الفرنسية لكتاب (مجمع الجزائر) لسولج نيتسين، الذي عمل على تغيير النمط الفكري لعامة الناس، وأحدث نقلة كبيرة في الأحداث السياسية بسرعة فائقة. انظر: فلسفه وجامعه وسياست، ترجمه إلى الفارسية: عزت الله فولادوند، ص 281 - 282، نشر ماهي، طهران.

[3] - حنة آرنت (Hannah Arendt) 1906 - 1975 م: منظرة سياسية وباحثة يهودية من أصول ألمانية.

- الذي كان طوال عقد الثلاثينات بسبب العزلة والاكتفاء الذاتي بمأمن من التأثيرات السلبية للركود الكبير - يعاني كل يوم من المزيد من المشاكل. فإن اقتصاد التخطيط كان قد نما تحت ضغط النظام البيروقراطي بشكل هيولي ملغز، حتى فقد تأثيره وجدوايته. وفي نهاية المطاف أخفق البرنامج الإصلاحي لآخر سكرتير في الحزب الشيوعي الذي كان يتولى قيادة الاتحاد السوفيتي، وبالتالي فقد انهار الاتحاد الجماهيري السوفيتي في الأيام الأخيرة من عام 1991 م بعد سبعة وسبعين سنة من قيامه.

يبد أن انهيار الاتحاد السوفيتي كان مظهرًا عينيًا لتيار قوي قد بدأ بالتبلور منذ أمد بعيد، وهو ما يمكن لنا تسميته انحلال اليسار في اليمين.

## الملحقات

### الملحق رقم (1)

#### الديمقراطية ومناقشة اليسار واليمين

إن من بين المسائل الرئيسة في الفلسفة السياسية للغرب، والتي نتعاطى معها في الجدل القائم بين معسكر اليسار ومعسكر اليمين باستمرار، هو مفهوم الديمقراطية. وكما سبق أن ذكرنا في القسم الخاص بالثورة الفرنسية بالتفصيل، فإن الديمقراطية التي تعني الحكومة التي تكتسب شرعيتها من الشعب والتي يكون الشعب هو المالك الشرعي لها، قد كانت في مرحلة الثورة الفرنسية فكرة يسارية خالصة. وفي قبال الديمقراطيين كان هناك المطالبون بالملكية الدستورية الذين يرومون تقنين حدود صلاحيات الملك، كما كان هناك الملكيون الذين يعتبرون من الموالين للنظام الملكي القديم.

وفي تلك المرحلة كان هناك تقارب بين الديمقراطية والليبرالية، بيد أن هذا التقارب والامتزاج كان يشتد مع تقدم الزمن. ففي المراحل

الليبرالية كان أحد أهم الأسباب في إضفاء المشروع عليها يكمن في قدرتها على تحقيق الديمقراطية في المجتمع. بحيث يقول الأستاذ بشيريه: "إن الرؤية الليبرالية تمثل الأساس الفلسفي والتنظيري للأنظمة الديمقراطية في الغرب. وعلى هذا المفهوم تكون الديمقراطية هي التحقق العيني والمعدّل للنظرية الليبرالية"<sup>[1]</sup>.

ومن ناحية أخرى فقد كان اليساريون يرون أنفسهم عهـم الديمقراطيون الحقيقيون على الدوام، وكانوا يتجهون في سعيهم إلى تحقيق الديمقراطية. وفي خضم ذلك كان النقاش قائماً حول فهم وتفسير الأسس والقواعد الديمقراطية والوزن النسبي لكل واحد منها. فبينما كانت الديمقراطيات الليبرالية تؤكد على حفظ الحقوق الفردية ونظرية حكم القانون، كانت الأنظمة الشيوعية تؤكد على المشاركة الجماهيرية وضمان مصالح الجماهير الشعبية<sup>[2]</sup>.

وعلى هذا الأساس يبدو أن الديمقراطية طوال القرن العشرين للميلاد قد حققت انتصاراً تاريخياً على سائر النظم الأخرى، وكان الجميع تقريباً من اليسار واليمين وتيار الاعتدال يدعي وصلاً بالأصول الديمقراطية<sup>[3]</sup>. وعلى حد تعبير ديفد هيل: "يبدو أن الديمقراطية تضيء هالة من الشرعية على الحياة السياسية الراهنة. إن القواعد والقوانين

[1] - انظر: حسين بشيريه، تاريخ اندیشه های سیاسی در قرن بیستم (تاريخ الأفكار السياسية في القرن العشرين)، ج 2، ص 11، نشر ني، طهران، 1388 هـ ش.

[2] - انظر: ستيفن تانسي، مقدمات سياست، ترجمه إلى الفارسية: هرمز همايون بور، ص 256، نشر ني، طهران، 1386 هـ ش.

[3] - انظر: ديفد هيلد، دموكراسي (الديمقراطية)، ترجمه إلى الفارسية: عزت الله فولادوند، المنشور في (فلسفه وجامعه و سياست)، تلخيص وتأليف وترجمة: عزت الله فولادوند، ص 363، نشر طرح نو، طهران، 1377 هـ ش.



والسياسات واتخاذ القرارات عندما تكون ديمقراطية، تصبح مبررة<sup>[1]</sup>. إن الديمقراطية بمفهومها الأعم، تدلّ على شكل من الحكم يختلف عن الحكومات التي يقودها شخص واحد أو مجموعة محددة، فالحكومة الديمقراطية هي التي يحكمها الناس من خلال مشاركتهم العامة. إلا أن من بين الأسئلة المطروحة على الدوام، هو السؤال القائل: من هم هؤلاء الناس؟ وكيف يجب أن يكون حكمهم؟ إن الإجابات المختلفة عن هذه الأسئلة قد أفرزت أشكالاً متنوّعة من الديمقراطيات.

وعلى طول التاريخ، يمكن لنا أن نرصد ثلاثة أنواع من الديمقراطيات، على النحو الآتي:

1 - الديمقراطية الأثينية التي كانت ملهمة للكثير من المفكرين في العصر التنويري وما بعده. إن هذا النوع من الديمقراطية - التي يطلق عليها مصطلح "الديمقراطية المباشرة" أيضاً - تقوم على المشاركة المباشرة للمواطنين في جميع القرارات، وهي وإن كانت عند الكثير من المفكرين تمثل نوعاً مثالياً من الديمقراطية، إلا أنها تبدو - بالالتفات إلى شرائط المجتمعات السياسية الحديثة، ومن بينها زيادة أعداد السكان، والمشاكل المتزايدة، وظهور التطلعات السياسية المتنوّعة - مستحيلة التحقق على أرض الواقع.

2 - الديمقراطية الانتخابية من الأنواع الهامة للديمقراطية في العالم الغربي، حيث يبدي التيار اليميني انحيازاً وميلاً إلى هذا النوع من

[1] - انظر: المصدر أعلاه.

الديمقراطية. في الديمقراطية الانتخابية تتم مشاركة الناس في الحكم من خلال الممثلين عنهم من النواب الذين يختارونهم. إن هؤلاء الممثلين يحظون بفترة حكم محددة، وبانتهاء هذه الفترة تستعاد منهم جميع الصلاحيات والمزايا الممنوحة لهم في فترة الحكم. كما يمتلك الناس حق عزل ممثلهم الذي انتخبوه أيضاً، وهذا يدل على أنهم وإن حولوا هؤلاء الممثلين اختياراتهم في الحكم، إلا أنهم لا يزالون هم المالكون الحقيقيون للسلطة. وكان الليبراليون يرون أن هذه الآلية الديمقراطية تجلب السعادة الأكبر للعدد الأكبر من أفراد المجتمع، ولو قدر لعناصر الحكومة هذه أن ترتبط بشكل وثيق مع مؤسسات السوق الحر، فسوف يمكن القضاء على الاستبداد وفي الوقت نفسه يتم حل مشكلة الحرية أيضاً. وكان كل من (جيرمي بنتام) و(جون ستورانت ميل) من أهم الفلاسفة الليبراليين الداعمين لهذا النوع من الديمقراطية<sup>[1]</sup>.

إن من بين المسائل الرئيسة لهذا النوع من الديمقراطية الشائعة في القرن العشرين للميلاد، هو السؤال القائل: من هي الجماعات التي تمتلك حق التصويت والانتخاب من بين المواطنين؟ وقد احتدم جدل واسع حول هذه المسألة. فحتى فترة طويلة لم يكن يحق الانتخاب إلا للذين يمتلكون سقفاً معيناً من الأموال والممتلكات أو الذين يتمتعون بالمكانة الاجتماعية. والكثير من الحكومات لم تمنح المرأة حق الانتخاب والتصويت إلا بعد منتصف القرن العشرين. ولم تتمكن

[1] - انظر: المصدر أعلاه، ص 368 - 369.

الأقليات العرقية - من أمثال: حمر الجلود والزنج في الولايات المتحدة الأمريكية - من التمتع بحق التصويت إلا بعد فترات طويلة من الكفاح. لقد كان اليساريون - والأهم من الجميع (كارل ماركس) - يذهبون إلى الاعتقاد بأن الكفاح والنضال الليبرالي ضد الاستبداد، واستماتة الديمقراطيين الليبراليين من أجل تحقيق المساواة السياسية، يمثل خطوة من الخطوات الهامة والمتقدمة في الحضارة الحديثة، ولكنها لم تكن تمثل نهاية الطريق أيضاً. كان الماركسيون يسعون إلى إثبات أن الحصول على الحريات السياسية في إطار الديمقراطية - ما دام النظام الاقتصادي الرأسمالي قائماً - لا يعدو أن يكون مجرد شيء ظاهري ومؤقت. وفي الحقيقة فإن عناصر الاستبداد والاستثمار والسلطة لا تزال قائمة في نسيج النظام الرأسمالي، وإن الكفاح الحقيقي من أجل تحقيق المساواة يجب أن يستهدف بالنقد العلاقات الاقتصادية التي تحكم السوق الحر - كما يستهدف مؤسسات من قبيل السلطة - أيضاً.

3 - النوع الثالث من أنواع الديمقراطية، هي الديمقراطية الحزبية، وهي الديمقراطية التي دعا إليها التيار اليساري. لقد كان الماركسيون يخالفون الديمقراطية الليبرالية؛ إذ يرونها محدودة للغاية، ويعتقدون بأن المؤسسات الديمقراطية الليبرالية ليست سوى أداة بيد المصالح الاقتصادية للبرجوازيين<sup>[1]</sup>. وقد كان هؤلاء يذهبون إلى الاعتقاد بوجود استبدال التركيبة الجمعية - الاشتراكية بنظام الدولة الليبرالية

[1] - انظر: كيت نش، جامعه شناسي سياسي معاصر، ترجمه إلى الفارسية: محمد تقي دلفروز، ص 257، نشر كوير، طهران، 1380 هـ ش.

الديمقراطية<sup>[1]</sup>. وذلك بأن تعمد أصغر الجماعات الاشتراكية إلى انتخاب ممثليها، على أن يتم إرسال هؤلاء الممثلين إلى وحدات انتخابية أكبر، ليعملوا بدورهم على انتخاب ممثلين يرسلونهم إلى نواحي أكبر، وهكذا دواليك حتى يتم في نهاية المطاف اختيار ممثلين يتولون مسؤولية إدارة الدولة، بيد أن بالإمكان عزل جميع هؤلاء الممثلين؛ إذ يجب أن يكونوا تابعين لإرادة الناس الذين انتخبوهم. وقد تم العمل بهذا النموذج الهرمي في الاتحاد السوفيتي، إلا أن نتيجته في الغالب كانت تصبّ لصالح الحفاظ على سلطة الحزب الواحد بشكل كامل، ولا تصبّ في مصلحة حرية الانتخاب. ومن هنا لم يكن اليمين ليعتبر هذا النموذج بوصفه ديمقراطية حقيقية أبداً.

والأمر الآخر الجدير بالاهتمام فيما يتعلق بموضوع الديمقراطية، فهو أن الاتجاهات اليمينية المتطرفة طوال هذه السنوات - كما هو شأن الملكيين السابقين - كانت ترفض الديمقراطية من الأساس. فقد كانت الفاشية والنازية تنكر مشروعية الديمقراطية من جذورها. كما لم يكن المحافظون يتعاطون معها بإيجابية. في حين أن أكثر الجماعات اليسارية تطرفاً - وهم الشيوعيون - كانوا يدعون بأنهم أكثر ديمقراطية من الديمقراطيين أنفسهم<sup>[2]</sup>.

[1] - انظر: ديفد هيلد، دموكراسي (الديمقراطية)، ترجمه إلى الفارسية: عزت الله فولادوند، المنشور في (فلسفه وجامعه وسياست)، تلخيص وتأليف وترجمة: عزت الله فولادوند، ص 371.

[2] - انظر: ستيفن تانسي، مقدمات سياست، ترجمه إلى الفارسية: هرمز همايون بور، ص 130.

## الملحق رقم (2)

ليس صدفة أن لا نعثر على مفردة الليبرالية في الآثار المكتوبة للكثير من المفكرين الليبراليين إلا نادراً. وأحياناً يحجمون عن استعمال مفردة الليبرالي ومشتقاتها المتنوعة. إلا أن هذا الإحجام يتأكد بشأن الليبرالية بشكل أكبر. يصرّ الليبراليون على عدم تحويل الليبرالية إلى مذهب. وليس من الصعب تفهّم ذلك. فقد أنفق الشطر الأعظم من مناقشات الليبراليين في النصف الأخير من القرن بالظن واللعن على المذاهب والأيدولوجيات التي سادت القرن التاسع عشر، لتلاقي مصيرها الكارثي في القرن العشرين، وينتهي أمرها بطرح أفكار من قبيل "نهاية الأيدولوجيات". إن إيضاح أن هذه الأبحاث هي في حد ذاتها جزء من النزاع الأيدولوجي، وهجوم أحد التيارات المتنازعة على المعسكر المنافس، يعني في الحقيقة قيام أساسه على جرف هار. وهذا هو الذي ياباه الليبراليون ويخشونه تماماً.

والعجيب أن الأيدولوجيا - والفهم الأيدولوجي - كانت حتى الأمس القريب أداة يعمل التيار اليساري على توظيفها للهجوم على التيار اليميني (المتمثل بشكل رئيس بهؤلاء الليبراليين). وقد عزف أمثال (كارل ماركس) و(لوكاتش) على معزوفة جميع الأفكار البرجوازية (ومن بينها الاقتصاد التقليدي الذي يمثل حجر الأساس للفكر الليبرالي) تحت ذريعة كونها مؤدلجة، بوصفها صوراً ناقصة ومحرفة عن الوعي والإدراك. بيد أنه من الواضح أن الذي يسلس سيف

المواجهة بوجه الأيديولوجيا، سوف يرتدّ عليه ولن يكون في مأمن من سيفه. فإن مثل هذه المدية يمكنها أن تقطع اليد القابضة عليها أيضاً! وقد كان (كارل ماركس) و(لوكاتش) أكثر نباهة من أن لا يلتفتا إلى هذه الحقيقة. ومن هنا فقد كان الشطر الأعظم من المسائل التي يطرحانها - ولا سيما (لوكاتش) - تختص بتبيين هذا الأمر، وهو: لماذا لا يمكن اعتبار الموضوع الذي ينطلقان منه للافتاء بأدلجة الأفكار الأخرى، بوصفه موضعاً أيديولوجياً أيضاً؟! إن تفصيل هذه الأدلة لا ربط له بموضوع بحثنا، ولكن يمكن القول على نحو الإجمال: يمكن حل هذه المشكلة بالنسبة إلى (كارل ماركس) والسائرين على نهجه، من طريق وضع البروليتاريا (الطبقة العمالية الصناعية) على قمة التاريخ، وفهمها - من خلال عبارات هيجل - بوصفها الكينونة الوحيدة لفهم النقيضة والطريحة على السواء. وبذلك لا يكون فهم ومعرفة طبقة العمال (الممثلة بالطبقة المستتيرة بطبيعة الحال!) أيديولوجية مثل سائر الأيديولوجيات، بل هي معرفة أصيلة وحقيقية.

في النصف الثاني من القرن العشرين كان الليبراليون هم الذين يهاجمون خصومهم تحت ذريعة وصفهم بالتأدلج. وبطبيعة الحال كان هذه المرة يتم التأكيد بشكل رئيس - لبعض المآرب والغايات - على القوة والصلابة التي تتمتع بها الأيديولوجيا. ولكن يبقى السؤال الجوهرى على ما هو عليه يفرض نفسه: أين يقف المعارضون الجدد للأيديولوجيا، وكيف يبرئون ساحتهم من صبغة وعار التفكير الأيديولوجي؟ فإذا كان (لوكاتش) قد نوى حل هذه المسألة من خلال

التركيز عليها، فقد عمد الليبراليون في النصف الثاني من القرن العشرين إلى إضمار حلها من طريق السكوت والتمويه وإنكار هذه المسألة من أساسها. كان على الليبراليين إخفاء وإنكار تمذهبهم، كي يتسنى لهم إقصاء خصومهم - أو إيقافهم عند حدّهم في الحد الأدنى - تحت ذريعة اتهامهم بالتمذهب. كان الليبراليون يصورون الليبرالية - بذكاء - لا بوصفها إمكاناً وخياراً مثل سائر الإمكانيات والخيارات الأخرى، بل بوصفها إطاراً للتنافس والتعاطي مع سائر الإمكانيات والخيارات. وكأن الليبرالية في حد ذاتها عبارة عن مساحة خالية يمكنها أن تستوعب كل شيء مع اشتراط رعاية قواعد اللعبة بطبيعة الحال! وهذه القواعد هي التي تمثل بيت القصيد الذي تضطر الليبرالية من خلاله إلى الكشف عن أيديولوجيتها.

ومن هذه الناحية تعيش الليبرالية وضعاً مشابهاً لصنوها التاريخي المتمثل بالعلمانية. فالعلمانية تدّعي أنها تشتمل على منهج سلمي يضع حداً للنزاع المستمر بين المذاهب والشرائع؛ وذلك من خلال حصر الطقوس المذهبية على المساحات الشخصية والخاصة من مرافق الحياة، وهكذا يتم التعايش بين أفراد مختلف المذاهب والأديان. ولكننا بعد قليل من التدقيق والتأمل في ماهية هذا المنهج والحل، ندرك أنه - خلافاً للتصور البدوي - لا ينطوي على حل إبداعي مبتكر. فإن العلمانية من خلال إقصاء الدين من دائرة الحياة الاجتماعية، تطلب - في الحقيقة - من أتباع جميع الأديان التنازل عن شطر كبير من معتقداتهم وأحكامهم الدينية، واستبداله بالصور والأشكال العرفية للتفكير (العلماني). وهذا يعني أن الأمور المرتبطة

بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا تقوم على أساس الأديان والمذاهب المتخاصمة، وإنما على أساس الشريعة العلمانية. قد يمكن للمسلم والمسيحي واليهودي الوصول إلى نوع من التعايش السلمي في ظل تحقق النظام العلماني، إلا أن هذا لن يحصل إلا إذا تخلى المسلم عن إسلامه، والمسيحي عن مسيحيته، واليهودي عن يهوديته في حياتهم الاجتماعية. وباختصار: إن العلمانية بدورها دين مثل سائر الأديان، وشريعة مثل سائر الشرائع، وعليه يمكن القول: لماذا لا يمكن حل النزاع المحتمل بين أتباع مختلف المذاهب والأديان، من خلال اعتناقهم للإسلام مثلاً، بدلاً من اعتناقهم للعلمانية؟! وبعبارة أدق: إن الإسلام يمنح الحرية لأتباع سائر الديانات والمذاهب الأخرى بممارسة شعائهم الدينية في حدود دوائهم الخاصة والشخصية أيضاً؛ وعليه فإن النزاع إنما يدور حول المذهب والدين الذي يجب أن يتم فيه تنظيم القواعد والخلافات العقائدية، وهذا ما تسعى العلمانية إلى إخفائه. إن القول بحل النزاع القائم بين الأديان من خلال انخراط جميع الأديان في العلمانية، لا يختلف كثيراً عن القول بحل النزاع القائم بين المذاهب الفقهية الأربعة لدى أهل السنة، من خلال انخراط جميع الأحناف والحنابلة والشافعية والملكية في المذهب الفقهي الشيعي الجعفري!

كما تدعي الليبرالية بدورها أنها تمثل إطاراً صالحاً لاحتواء التنافس السلمي بين مختلف وجهات النظر ضمن منظومتها السياسية. وذلك بطبيعة الحال يتوقف على شرط مراعاة جميع هذه الآراء والأيدولوجيات المتناحرة لقواعد اللعبة، وتمثل قواعد اللعبة بمجملها في أن تغدو جميع الطاقات المشاركة في المنظومة (على



اختلاف مراتبها)، ليبرالية! ومن هذه الناحية لا تختلف الليبرالية كثيراً عن سائر المنظومات السياسية الأخرى. إذ يمكن لمن يؤمن بقواعد لعبة الأنظمة الأخرى أن ينخرط فيها بحسب القاعدة أيضاً. وربما تميّز النظام الليبرالي بقدرته الكبيرة والمدهشة على اجتذاب ألد خصومها وأعدائها وإدخاله ضمن إطارها. وهذا ما يؤكد عليه المغرمون بالليبرالية على الدوام، إلا أنهم لا يشيرون إلى حقيقة هامة في مسار هذا الاجتذاب، وهي أن هذا الاجتذاب والادغام مسبق بمسار آخر، يعبر عنه بعض المتقدين بتعبير لاذع؛ إذ يطلقون عليه مصطلح "الإخضاء"! وهذا يعني أن النظام الليبرالي من خلال تجريد القوى المعارضة له من مقوماتها، يعمل من خلال مسار غاية في التعقيد على تحويلها إلى عناصر للديكور والزينة. ومن هنا لا عجب من أن يتمخض النظام الليبرالي الرأسمالي - من قبيل: الجمهورية الفرنسية الخامسة - عن الحزب الشيوعي الذي يحصل في جميع الانتخابات على معدل يتراوح ما بين أربعة إلى ستة بالمئة من مجموع الأصوات والآراء. والملفت أن طلاب الجامعات من الراديكاليين الفرنسيين عندما خرجوا إلى شوارع في تظاهرات شهر أيار من عام 1968 م، رافعين تلك الشعارات المتطرفة التي حولت الشوارع الباريسية إلى ساحة مواجهة مع النظام السياسي الليبرالي الرأسمالي، لم يحصلوا على دعم من حزبهم، بل تحول الحزب إلى صفوف المحافظين على الواقع القائم. وبذلك نجح النظام الليبرالي في إخضاء الحزب الشيوعي وتدجينه.

# المؤلف في سطور

د. محمد سجاد صفار هرندي  
د. محمد ملا عباسي

د. محمد سجاد صفار هرندي:

باحث في العلوم الاجتماعية في جامعة طهران، وعضو في هيئة إدارة مؤسسة كوثر الثقافية ومدير قسم الدراسات الثقافية فيها، مدير تحرير مجلة: (كتاب ماه علوم اجتماعي) ومدير تحرير سلسلة كتب (انديشه اجتماعي غرب جديد).

من مؤلفاته:

1. مدرنيته.
2. وهذا الكتاب.
3. وله مشاركات في مجلات مختلفة

د. محمد ملا عباسي:

مؤلف ومترجم وباحث في العلوم الاجتماعية ومدير تحرير مجلة (ترجمان) التي تصدر في العاصمة الإيرانية طهران.

من مؤلفاته

1. تصوّر عصر پسا توسعه.
2. ليبراليسم ومسأله عدالت.
3. وله مشاركات في مجلات مختلفة.

## هذا الكتاب

### اليمين واليسار

رؤية إبستمولوجية نقدية للمفهوم

في هذه الحلقة من سلسلة مصطلحات معاصرة يتناول الباحثان الإيرانيان سجّاد صفّار هرندي ومحمد ملأ عباسي مفهوم اليمين واليسار انطلاقاً من رؤية جديدة سعت إلى الإحاطة به من الجانبين النظري والتطبيقي.

لا شك بأن قراءة إجمالية لتاريخ هذا المصطلح سوف تبيّن لنا المساحة الكبرى لحضوره في عالم السياسة والفكر والاجتماع، غير أن الإضاءة عليه على النحو الذي عرضته هذه الدراسة يكتسب أهمية معرفيّة خاصّة. فقد بيّن الكاتب استناداً إلى التجارب التاريخية في الغرب والعالم الإسلامي، ناهيك عن رؤيته النقدية لتلك التجارب.



المركز الإسلامي للدراسات والبحوث

<http://www.iicss.iq>

[islamic.css@gmail.com](mailto:islamic.css@gmail.com)